فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟
مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ
عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ
ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟
رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا
نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ
أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ
أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟
وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾
سُورَةُ النِّسَآءِ
٧٦

معانى الكلمات :

لا يغرنك : لا يخدعنك عن الحقيقة .

تقلب : تصرف .

متاع قليل : نعمة زائلة .

بئس المهاد : بئس الفراش .

نزلاً : جزاء ، وتكرمة .

صابروا : غالبوا الأعداء فى الصبر على القتال . **رابطوا** : أقيموا بحدود بلادكم مستعدين للجهاد .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن الإسلام قد سوى بين الرجل والمرأة ولم يفرق بينهما إلا فيما تتطلبه رسالة كل منهما فى الحياة .

٢ ـ أن نحذر الانخداع بالكافرين وعلوهم فى الأرض ، فذلك لهم متاع قليل ثم مردهم إلى النار .

٣ ـ أن ندرك تكاليف الدعوة و صبر من صابر ورابط واتقى الله بغية نيل الفلاح .

المحتوى التربوى :

بعدما تفكر أولو الألباب فى خلق السموات والأرض ، وتدبروا اختلاف الليل والنهار ، وتلقوا من كتاب الكون المفتوح ، واستجابت فطرتهم لإيحاء الحق المستكين فيه ، اتجهوا إلى ربهم بالدعاء الواجف الخاشع الطويل .. فجاءت الاستجابة على دعائهم المخلص الودود ..

ويقول صاحب الظلال : « لقد كانت قبولاً للدعاء ، وتوجيهاً إلى مقومات هذا المنهج الإلهى وتكاليفه فى آن : إنه ليس مجرد التفكير ومجرد التدبر . وليس مجرد الخشوع والارتجاف . وليس مجرد الاتجاه إلى الله لتكفير السيئات والنجاة من الخزى من النار .. إنما هو العمل الإيجابى ، الذى ينشأ عن هذا التلقى ، وعن هذه الاستجابة ، وعن هذه الحساسية الممثلة فى هذه الارتجافة . العمل يعتبره الإسلام عبادة كعبادة التفكر والتدبر ، والذكر والاستغفار ، والخوف من الله ، والتوجه إليه بالرجاء .. بل العمل الذى يعتبره الإسلام الثمرة الواقعية المرجوة لهذه العبادة ، والذى يقبل من الجميع : ذكرانا وإناثاً بلا تفرقة ناشئة من اختلاف الجنس » .

ثم تفصيل للعمل ، تتبين منه تكاليف هذه العقيدة فى النفس والمال ، كما تتبين طبيعة المنهج ، وطبيعة الأرض التى يقوم عليها ، وطبيعة الطريق وما فيه من عوائق وأشواك ، وضرورة مغالبة العوائق ، وتكسير الأشواك ، وتمهيد التربة للنبتة الطيبة ، والتمكين لها فى الأرض ، أياً كانت التضحيات ، وأياً كانت العقبات .. فهذا هو الطريق .. طريق المنهج الربانى ، الذى قدر الله أن يكون تحققه فى واقع الحياة بالجهد البشرى ، وعن طريق هذا الجهد ، وبالقدر الذى يبذله المؤمنون المجاهدون فى سبيل الله . ابتغاء وجه الله .

ثم تلتفت الآيات التفاتة واقعية إلى الفتنة المستكنة فى المتاع المتاح فى هذه الأرض للكفار والعصاة والمعادين لمنهج الله . التفاتة لإعطاء هذا المتاع قيمته الصحيحة ، حتى لا يكون فتنة لأصحابه ، ثم كى لا يكون فتنة للمؤمنين ، الذين يعانون ما يعانون من أذى وإخراج من الديار وقتل وقتال .

ويقول صاحب الظلال :« وتقلب الذين كفروا فى البلاد مظهر من مظاهر النعمة والوجدان ، ومن مظاهر المكانة والسلطان ، وهو مظهر يحيك فى القوب منه شىء لا محالة ، يحيك منه شىء فى قلوب المؤمنين ؟ وهم يعانون الشظف والحرمان ، والأذى والمشقة والمطاردة والجهاد بينما أصحاب الباطل ينعمون ويستمتعون ! ويحيك منه شىء فى قلوب الجماهير الغافلة ، وهى ترى الحق وأهله يعانون هذا العناء ، والباطل وأهله فى منجاة ، بل فى مسلاة ! ويحيك منه شىء فى قلوب الضالين المبطلين أنفسهم ؛ فيزيدهم ضلالاً وبطراً ولجاجاً فى الشر والفساد » .

هنا تأتى هذه اللمسة أنه متاع قليل ، ينتهى ويذهب .. أما المأوى الدائم الخالد ، فهو جهنم .. وبئس المهاد ، وفى مقابل المتاع القليل الذاهب جنات ، وخلود ، وتكريم من الله وما يشك أحد يضع ذلك وذاك فى كفة ، أن ما عند الله خير للأبرار ، إن الله سبحانه فى موضع التربية ، وفى مجال إقرار القيم الأساسية فى التصور الإسلامى لا يعد المؤمنين هنا بالنصر ، ولا يعدهم بقهر الأعداء ، ولا يعدهم بالتمكين فى الأرض ، ولا يعدهم شيئا من الأشياء فى هذه الحياة مما يعدهم به فى مواضع أخرى ، إنه يعدهم هنا شيئاً واحداً هو (ما عند الله) فهذا هو الأصل فى هذه الدعوة ، ونقطة الانطلاق فى هذه العقيدة : التجرد المطلق من كل هدف ومن كل غاية ، ومن كل مطمع حتى رغبة المؤمن فى غلبة عقيدته وانتصار كلمة الله وقهر الأعداء ، حتى هذه الرغبة يريد الله أن يتجرد منها المؤمنون ، وتتخلص قلوبهم من أن تكون هذه الشهوة لها ولو كانت لا تخصها .

هذه العقيدة : عطاء ووفاء وأداء .. فقط وبلا مقابل من أعراض هذه الأرض ، وبلا مقابل كذلك من نصر وغلبة وتمكين واستعلاء ... ثم انتظار كل شىء هناك . ثم يقع النصر ، والتمكين والاستعلاء ، ولكن هذا ليس داخلاً فى البيعة ؛ ليس جزءاً من الصفقة . ليس فى الصفقة مقابل فى هذه الدنيا . وليس فيها إلا الأداء والوفاء والعطاء .. والابتلاء ..

على هذا كانت البيعة والدعوة مطاردة فى مكة ؛ وعلى هذا كان البيع والشراء أولم يمنح الله المسلمين النصر والتمكين والاستعلاء ؛ ولم يسلمهم مقاليد الأرض وقيادة البشرية ، إلا حين تجردوا هذا التجرد ، ووفوا هذا الوفاء.

وقبل ختام السورة يعود إلى أهل الكتاب ، فيقرر أن فريقاً منهم يؤمن إيمان المسلمين ، وقد انضم إلى موكب الإسلام معهم وسار سيرتهم ، ولهم كذلك جزاؤهم . ويعدهم أجر المؤمنين عند الله ـ الذى لا يمطل المتعاملين معه ـ حاشاه !

ثم يأتى النداء العلوى الأخير للذين آمنوا . نداؤهم بالصفة التى تربطهم بمصدر النداء ، والتى تُلقى عليهم هذه الأعباء ، والتى تؤهلهم للنداء وللأعباء وتكرمهم فى الأرض كما تكرمهم فى السماء وتلخص لهم أعباء المنهج وشروط : الطريق الصبر والمصابرة والمرابطة بالإقامة فى مواقع الجهاد وفى الثغور المعرضة لهجوم الأعداء ، ولتكن التقوى المصاحبة لهذا كله. فهى الحارس اليقظ فى الضمير يحرسه أن يغفل أو أن يضعف ، ويحرسه أن يعتدى ؛ ويحرسه أن يحيد عن الطريق من هنا ومن هناك . وهذا هو جماع التكاليف التى تفرضها هذه الدعوة فى عمومها .. ومن ثم يعلق الله بها عاقبة الشوط الطويل وينوط بها الفلاح فى هذا المضمار .

يقول صاحب الأساس : « التربية من خلال التنبيه على الخطأ سمة من سمات القرآن ، ومن سمات التربية النبوية فليس هناك خطأ يسكت عنه ولكن لإصلاح الخطأ أسلوبه، فخطأ الجماعة، وخطأ الأفراد ، كل ذلك كان يعالج بالأساليب المناسبة ، ولقد كان جيل الصحابة أعظم جيل ربانى عرفه هذا العالم ؛ إذ لم يكن الخطأ الجماعى يتكرر مرتين ، ومن ثم نجد فى القرآن دروس الحياة اليومية ، فقد سجل القرآن من وقائع الأحداث فى حياة رسول الله ﷺ وأصحابه ، والحادثة التى تسجل تؤخذ دروسها ضمن سياق السورة ومضمونها ، وضمن السياق القرآنى العام » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن زيادة المال ومتع الحياة ليست دليلاً على إكرام الله ورضاه ، وأن قلة المال ومتع الحياة ليست دليلاً على سخط الله وغضبه ؛ لأن متاع الدنيا قليل زائل ، والعبرة بما أعده الله من نعيم للمتقين .

٢ ـ حقيقة البيعة مع الله عطاء ووفاء وأداء .. دون انتظار غلبة ، أو نصر وتمكين أو استعلاء ، إنما ابتغاء مرضاة الله .

٣ ـ الصبر والمصابرة تربية للنفس على معالى الأخلاق ومكارمها ، وبغيرهما قلما يصلح دين إنسان أو دنياه .

٤ ـ الصبر ومغالبة الأعداء والرباط فى سبيل الله وتقواه ، سبيل الفلاح والسعادة والنجاح فى الدنيا والآخرة .

معانى الكلمات :

بث منهما : نشر وفرّق منهما بالتناسل .

حوباً : إثماً كبيراً . **ألا تقسطوا**: ألا تعدلوا .

ما طاب لكم : ما حلَّ لكم . **أدنى ألا تعولوا** : أقرب ألا تجوروا فى النفقة وسائر الحقوق . **صَدُقَاتِهِنَّ** : مُهُورَهُنَّ . **نحلة** : فريضة . **هنيئاً مَّريئاً** : طيباً سائغاً حلالاً .

قياماً : قوام معايشكم .

ابتلوا اليتامى : اختبروهم فى الاهتداء لحسن التصرف فى أموالهم قبل البلوغ .

آنستم : علمتم .

وبداراً أن يَكبروا : مبادرين كبرهم ورشدهم .

فليستعفف : فليكف عن أكل أموالهم .

حَسِيباً : محاسباً لكم ورقيباً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نستشعر وحدة الأصل الإنسانى .

٢ ـ أن نعرف واجبنا تجاه اليتيم .

٣ ـ أن نتبين حكم الشرع فى تعدد الزوجات والحكمة من ذلك .

٤ ـ أن نعرف بعض ضوابط الإنفاق ونظرة الإسلام للمال .

المحتوى التربوى :

فى هذه السورة نجد بعض الملامح التى يتوخى المنهج الإسلامى إنشاءها فى المجتمع المسلم ، بعد تطهيره من رواسب الجاهلية ، وإنشاء الأوضاع والتشريعات التنفيذية ، التى تكفل حماية هذه الملامح وتثبيتها فى الواقع الاجتماعى .

وفى افتتاح السياق الأول يرد الناس إلى رب واحد ، وخالق واحد ؛ كما يردهم إلى أصل واحد ، وأسرة واحدة ، ويستجيش فى النفس تقوى الرب ، ورعاية الرحم .. لتقيم على هذا الأصل الكبير كل تكاليف التكافل والتراحم فى الأسرة الواحدة ، ثم فى الإنسانية الواحدة.

ويقول صاحب الظلال : « إن هذه الحقائق تجلو للقلب والعين مجالاً فسيحاً لتأملات شتى :

١ ـ إنها ابتداء تذكر الناس بمصدرهم الذى صدروا عنه ؛ وتردهم إلى خالقهم الذى أنشأهم فى هذه الأرض . هذه الحقيقة التى ينساها الناس فينسون كل شىء ! ولا يستقيم لهم بعدها أمر !

٢ ـ كما أنها توحى بأن هذه البشرية التى صدرت من إرادة واحدة ، تتصل فى رحم واحدة ، وتلتقى فى وشيجة واحدة ، وتنبثق من أصل واحد ، وتنتسب إلى نسب واحد . ولو تذكر الناس هذه الحقيقة لتضاءلت فى حسهم كل الفروق الطارئة ، التى نشأت فى حياتهم متأخرة ففرقت بين أبناء النفس الواحدة ، ومزقت وشائج الرحم الواحدة . وكلها ملابسات طارئة ما كان يجوز أن تطغى على مودة الرحم وحقها فى الرعاية ، وصلة النفس وحقها فى المودة ، وصلة الربوبية وحقها فى التقوى .

٣ ـ كذلك توحى بأن قاعدة الحياة البشرية هى الأسرة .. ولو شاء الله لخلق ـ فى أول النشأة ـ رجالاً كثيراً ونساء، وزوجهم ، فكانوا أسراً شتى من أول الطريق . لا رحم بينها من مبدأ الأمر. ولا رابطة تربطها إلا صدورها عن إرادة الخالق الواحد .. ولكنه ـ سبحانه ـ شاء لأمر يعلمه أن يضاعف الوشائج ، وشيجة الربوبية ثم الرحم ثم الأسرة التى يقوم عليها نظام المجتمع الإنسانى بعد قيامه على أساس العقيدة .

ثم يردهم إلى تقوى الله .. واتقوا الله الذى تتعاهدون باسمه ، وتتعاقدون باسمه ، ويسأل بعضكم بعضاً الوفاء باسمه ، ويحلف بعضكم لبعض باسمه .. اتقوه فيما بينكم من الوشائج والصلات والمعاملات .

ويقول صاحب الظلال : « تقوى معهودة ومفهومة لتكرارها فى القرآن أما تقوى الأرحام ، فهى تعبير عجيب .. أرهفوا مشاعركم للإحساس بوشائجها والإحساس بحقها . وتوقى هضمها وظلمها ، والتحرج من خدشها ومسها.. توقوا أن تؤذوها وأن تجروها وأن تغضبوها ؛ لأن الله كان عليكم رقيبا وهو العليم الذى لا تخفى عليه خافية ، لا فى ظواهر الأفعال ولا فى خفايا القلوب » .

ومن هذا الافتتاح القوى المؤثر يأخذ السياق القرآنى إقامة الأسس التى ينهض عليها نظام المجتمع وحياته من التكافل فى الأسرة والجماعة ، والرعاية لحقوق الضعاف فيها ، والصيانة لحق المرأة وكرامتها ، والمحافظة على أموال الجماعة فى عمومها ، وتوزيع الميراث على الورثة بنظام يكفل العدل للأفراد والصلاح للمجتمع .

ويقول صاحب الظلال : « ويبدأ فيأمر الأوصياء على اليتامى أن يردوا لهم أموالهم كاملة سالمة متى بلغوا سن الرشد . وألا ينكحوا القاصرات اللواتى تحت وصايتهم طمعاً فى أموالهن . أما السفهاء الذين يُخْشَىَ من إتلافهم للمال . إذا هم تسلموه ، فلا يُعطى لهم المال . لأنه فى الحقيقة مال الجماعة ، ولها فيه قيام ومصلحة ، فلا يجوز أن تسلمه لمن يفسد فيه ، وأن يراعوا العدل والمعروف فى عشرتهم للنساء عامة .

وتشى هذه التوصيات المشددة بما كان واقعاً فى الجاهلية العربية من تضييع لحقوق الضعاف بصفة عامة . والأيتام بصفة خاصة .. هذه الرواسب التى ظلت باقية فى المجتمع المسلم ... حتى جاء القرآن يذيبها ويزيلها ».

ثم يأمرنا عز وجل بأن نعطى اليتامى أموالهم التى تحت أيدينا ، ولا نعطيهم الردىء فى مقابل الجيد .. ، ولا نأكل أموالهم بضمها إلى أموالنا ، كلها أو بعضها .. لأن ذلك من كبائر الذنوب ، والله يحذرنا من الذنب الكبير .

ثم أرشدنا تعالى إلى ترك التزوج من اليتيمة إذا لم يعطها مهر المثل : أى إذا كانت تحت حَجْر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها فليتركها إلى ما سواها فإن النساء كثير ولم يضيق الله عليه ، فلينكح ما شاء اثنتين وإن شاء ثلاثاً أو أربعاً ، وإن خاف من عدم العدل بين الزوجات فليلزم الاقتصار على واحدة ، أو يقتصر على نكاح الإماء لملك اليمين إذ ليس لهن من الحقوق كما للزوجات وذلك أقرب ألا يميل أو يجور ، وليعط النساء مهورهنّ عطية عن طيب نفس فإن طابت نفوسهن بهبة شىء من الصداق فإن أكله مشروع وحلال .

ثم يعود السياق إلى أموال اليتامى ؛ يفصل فى أحكام ردها إليهم ، وينهى عن تسليم المال للسفهاء منهم ، الذين لا يحسنون تدبير المال وتثميره ، فلا يحق لهم التصرف فيه والقيام عليه ، إنما يعود التصرف فى مال الجماعة إلى من يحسن التصرف فيه من الجماعة مع مراعاة درجة القرابة لليتيم ، تحقيقاً للتكافل الاجتماعى ، وللسفيه حق الرزق والكسوة فى ماله مع حسن معاملته ، وفى حالة تبين الرشد تسلم إليهم أموالهم كاملة سالمة ، مع عدم المبادرة إلى أكلها بالإسراف قبل أن يكبر أصحابها فيتسلموها ، مع الاستعفاف عن أكل شىء منها مقابل القيام عليها ـ إذا كان الولى غنياً ـ والأكل منها فى أضيق الحدود إذا كان الولى محتاجاً ـ مع وجوب الإشهاد فى محضر التسليم .. وختام الآية : التذكير بشهادة الله وحسابه .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الناس جميعاً مؤمنهم وكافرهم ـ أى أمة الإجابة وأمة الدعوة ـ مطالبون بتقوى الله إذا أرادوا لأنفسهم الخير فى الدنيا والآخرة .

٢ ـ أن المجتمع الآمن المستقر هو المجتمع الذى يُرعى فيه الضعفاء من أيتام وصغار ونساء ، وتحفظ حقوقهم وتؤدى لهم تقرباً إلى الله أولاً ، وسعياً لتأمين المجتمع وتنقيته من الحقد والجريمة والظلم بعد ذلك .

٣ ـ صلة الأرحام أصل من أصول هذا الدين ورعايتها من أسباب البركة فى الرزق والمنسأة فى الأثر والزيادة فى العمر ولنعلم حديثه ﷺ : « ليس الواصل بالمكافئ ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رحمه وصلها » .

٤ ـ أن نحذر كل الحذر من المساس بشىء من أموال اليتامى ، فالواجب صيانتها وردها كاملة سالمة لهم عند بلوغهم الرشد وإحسان التصرف فيها .

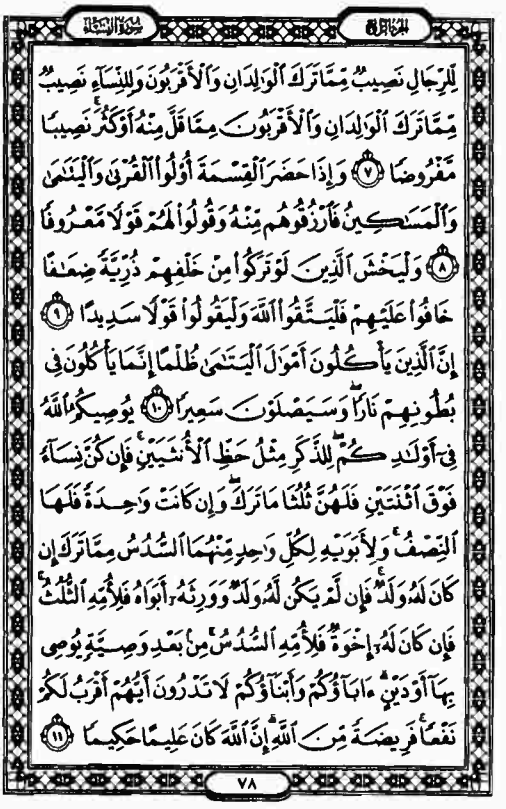
لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ
مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا
مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ
وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا
﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا
خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾
إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي
بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ يُوصِيكُمُ اللَّهُ
فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً
فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا
النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن
كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ
فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي
بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ
نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١﴾
٧٨

معانى الكلمات :

نصيب : حظ من تركة الميت .

مفروضاً : واجباً أو مقطوعاً محدداً .

قولاً سديداً : قولاً جميلاً أو صواباً وعدلاً .

ظُلماً : بدون وجه حق .

سيصلون سعيراً : سيدخلون ناراً موقدة هائلة . **يوصيكم الله**:يأمركم الله . **فريضة**:مفروضة عليكم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف موقف الإسلام من مبدأ الميراث .

٢ ـ أن نعلم كيفية التصرف مع من حضر القسمة من أولى القربى واليتامى والمساكين .

٣ ـ أن نعرف كيف نحافظ على الذرية بعد الممات .

٤ ـ أن نعرف جزاء الاعتداء على مال اليتامى ونحذر المساس به .

المحتوى التربوى :

يواصل سياق الآيات حديثه عن إرساء قواعد المجتمع الإسلامى وتشريعاته فى الأمور الحياتية الاقتصادية ، وينتقل السياق من الحديث عن المال الخاص باليتامى إلى الميراث فيقرر أن للرجال والنساء نصيباً من تركة الأقرباء أى للأولاد والأقرباء حظ من تركة الميت ، كما للبنات والنساء حظ أيضاً . الجميع فيه سواء يستوون فى أصل الوراثة وإن تفاوتوا فى قدرها ، وسببها أن العرب كانوا لا يورّثون النساء والأطفال وكانوا يقولون : إنما يرث من يحارب ويذبُّ عن الحوزة، فأبطل الله حكم الجاهلية سواء كانت التركة قليلة أو كثيرة ففرض نصيباً مفروضا بشرعه العادل وكتابه المبين .

ولما كان نظام التوريث ـ يحجب فيه بعض ذوى القربى بعضاً ، فيوجد ذوو قرابة ، ولكنهم لا يرثون ؛ لأن من هم أقرب منهم سبقوهم فحجبوهم ؛ فإن السياق يقرر لهم حقا لا يحدده إذا هم حضروا القسمة تطييباً لخاطرهم ـ واحتفاظاً بالروابط العائلية ، ، والمودات القلبية . كذلك يقرر لليتامى والمساكين ، مثل هذا الحق تمشياً مع قاعدة التكافل العام .

ويقول صاحب الظلال : « وقبل أن يأخذ السياق فى تحديد أنصبة الورثة ، يعود ليحذر من أكل أموال اليتامى .. يعود إليه فى هذه المرة ليلمس القلوب لمستين قويتين :

أولاهما : تمس مكمن الرحمة الأبوية والإشفاق الفطرى على الذرية الضعاف وتقوى الله الحسيب الرقيب .

والثانية : تمس مكان الرهبة من النار ، والخوف من السعير ، فى مشهد حسى مفزع .. يصور صورة النار فى البطون وصورة السعير فى نهاية المطاف ـ لمن يأكل مال اليتيم ـ وإن مصيرهم لإلى النار فهى النار تشوى البطون والجلود وهى النار من ظاهر وباطن . هى النار مجسمة حتى لتكاد تحسها البطون والجلود ، وحتى لتكاد تراها العيون ، وهى تشوى البطون والجلود !

ثم ينتقل السياق إلى نظام التوارث . حيث يبدأ بوصية الله للوالدين فى أولادهم؛فتدل هذه الوصية على أنه ـ سبحانه ـ أرحم وأبر وأعدل من الوالدين مع أولادهم ؛ كما تدل على أن هذا النظام كله مرده إلى الله سبحانه ؛ فهو الذى يحكم بين الوالدين وأولادهم ، وبين الأقرباء وأقاربهم . وليس لهم إلا أن يتلقوا منه سبحانه ، وأن ينفذوا وصيته وحكمه وهذه الآيات تتضمن أصول علم الفرائض ـ أى علم الميراث ـ أما التفريعات فقد جاءت السُنة ببعضها نصاً ، واجتهد الفقهاء فى بقيتها تطبيقاً على هذه الأصول . وليس هنا مجال للدخول فى هذه التفريعات والتطبيقات فمكانها كتب الفقه ، فنكتفى هنا بتفسير هذه النصوص ، والتعقيب على ما تتضمنه من أصول المنهج الإسلامى .

يأمر الله ويعهد لعباده بالعدل فى شأن ميراث الأولاد ، وهذه وصية تدل على أن الله ـ كما قلنا آنفا ـ أرحم وأبر وأعدل من الوالدين مع أولادهم ، كما تدل على أن هذا النظام كله مرده إلى الله سبحانه وتعالى ، فإذا فرض لهم فإنما يفرض لهم ما هو خير مما يريده الوالدان بالأولاد وفرض الشرع للابن ميراثاً مثل نصيب البنتين وإن كان الوارث إناثاً فقط اثنتين فأكثر ﴿ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ﴾ أى فللبنتين ثلثا التركة ﴿ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ﴾ أى وإن كانت الوارثة بنتاً واحدة فلها نصف التركة .

ولقد بدأ تعالى بذكر ميراث الأولاد . ثم ذكر ميراث الأبوين ؛ لأن الفرع مقدم فى الأرث على الأصل فقال تعالى : ﴿ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ أى للأب السدس وللأم السدس ﴿ مِمَّا تَرَكَ ﴾ أى من تركة الميت ﴿ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ﴾ أى إن وجد للميت ابن أو بنت ؛ لأن الولد يطبق على الذكر والأنثى ﴿ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ ﴾ أى فإن لم يوجد للميت أولاد وكان الوارث أبويه فقط ، أو معهما أحد الزوجين ﴿ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ﴾ أى فللأم ثلث المال أو ثلث الباقى بعد فرض أحد الزوجين والباقى للأب ﴿ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ﴾ أى فإن وجد مع

الأبوين إخوة للميت اثنان فأكثر فالأم ترث حينئذ السدس فقط والباقى للأب ، والحكمة أن الأب مكلف بالنفقة عليهم دون أمهم فكانت حاجته إلى المال أكثر ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ﴾ أى : إن حق الورثة يكون بعد تنفيذ وصية الميت وقضاء ديونه فلا تقسم التركة إلا بعد ذلك .

﴿ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أراد الله سبحانه وتعالى أن يسكب فى القلوب راحة الرضا والتسليم لأمر الله ، ولما يفرضه الله ، بإشعارها أن العلم كله لله ، وأنهم لا يدرون أى الأقرباء أقرب لهم نفعاً ، ولا أى القسم أقرب لهم مصلحة ، وأن القضية ليست مسألة هوى أو مصلحة قريبة ، إنما هى مسألة الدين ومسألة الشريعة ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أى إنه تعالى تولى قسمة المواريث بنفسه وفرض الفرائض على ما علمه من الحكمة ، فقسم حيث توجد المصلحة وتتوفر المنفعة ولو ترك الأمر إلى البشر لم يعلموا ما هو أنفع لهم فيضعون الأموال على غير حكمة ولهذا أتبعه بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾أى إنه عليم بما يصلح لخلقه حكيم فيما شرع وفرض .

يقول صاحب **الظلال** فى قوله تعالى : ﴿ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ : « فالله هو الذى خلق الآباء والأبناء والله هو الذى أعطى الأرزاق والأموال . والله هو الذى يفرض ، وهو الذى يقسم، وهو الذى يشرع . وليس للبشر أن يشرعوا لأنفسهم، ولا أن يحكموا هواهم ، كما أنهم لا يعرفون مصلحتهم ! » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تقرير الإسلام لمبدأ الميراث ، إنما شرع لحفظ الحقوق ، وتوثيق المودات ، والبر والصلة للأبناء والأرحام والأقارب .

٢ ـ وجوب الإحسان إلى اليتامى ، والخشية عليهم كما يخشى على أولاده من بعده ، مع عدم المساس بأموالهم وصيانتها ، وإحاطتهم بالعطف والحنان .

٣ ـ الله تعالى ـ أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، فلقد أوصى الوالدين بأولادهم .

٤ ـ إن الله تعالى تولى قسمة التركات بنفسه فلا يحل لأحد أن يغير منها شيئاً .

٥ ـ وجوب النصح والإرشاد للمحتضر حتى لا يجور فى وصيته عند موته .

٦ ـ استحباب إعطاء من حضر قسمة التركة من الأقارب واليتامى والمساكين وإن تعذر إعطاؤهم صُرفوا بالكلمة الطيبة ، وفى الحديث : « الكلمة الطيبة صدقة » .

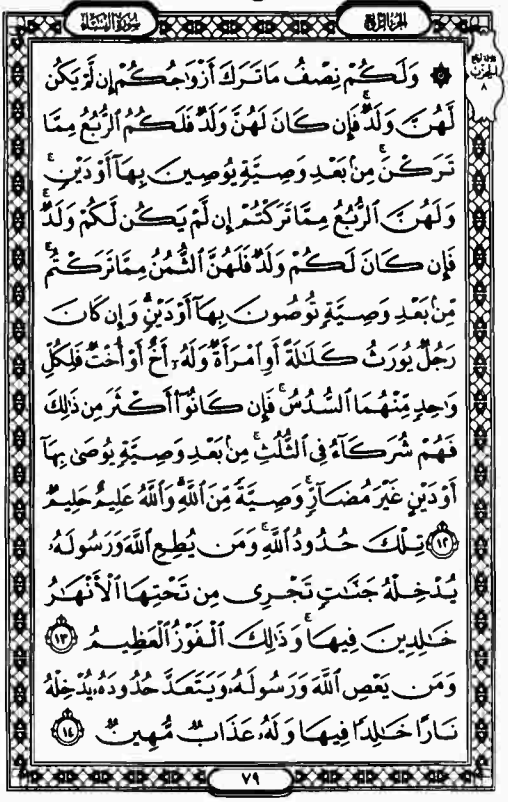
﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿١٢﴾ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾

معانى الكلمات :

كلالة : ميتاً لا ولد له ، ولا والد .

غير مضار : للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة .

حدود الله : شرائعه وأحكامه المفروضة .

ويتعد حدوده : يتجاوز ما أمره الله تعالى به من الطاعات .

عذاب مهين : عذاب شديد مع المهانة والإذلال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم أن مسائل وأنصبة المواريث نص لا اجتهاد فيه ولا هوى .

٢ ـ أن نعرف موقع الوصية من التركة.

٣ ـ أن نعرف معنى الكلالة .

٤ ـ أن نوضح حكمة الإسلام فى تشريعه الحكيم لأمور المواريث .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق القرآنى الحديث عن مسائل الميراث وأنصبة الورثة فيذكر ميراث الزوج والزوجة فيقول : ﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ﴾ أى ولكم أيها الرجال نصف ما ترك أزواجكم من المال إن لم يكن لزوجاتكم أولاد منكم أو من غيركم ﴿ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ﴾ أى من ميراثهن ، وألحق بالولد فى ذلك ولد الابن بالإجماع ﴿ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ أى من بعد الوصية وقضاء الدين ﴿ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ﴾ أى ولزوجاتكم واحدة فأكثر الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولد منهن أو من غيرهن .

﴿ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم ﴾ أى فإن كان لكم ولد منهن أو من غيرهن ـ وكذلك أبناء ابن الصلب ـ فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من المال ﴿ مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ﴾ وفى تكرير ذكر الوصية والدين من الاعتناء بشأنهما ما لا يخفى .

﴿ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً ﴾ أى وإن كان الميت يورث كلالة أى لا والد له ولا ولد وورثه أقاربه البعيدون لعدم وجود الأصل أو الفرع ﴿ أَوِ ٱمْرَأَةٌ ﴾ عطف على رجل والمعنى أو امرأة تورث كلالة ﴿ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ ﴾ أى وللمورّث أخ أو أخت من أم ﴿ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ ﴾ أى فللأخ من الأم السدس وللأخت من الأم السدس أيضا.

﴿ فَإِن كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَآءُ فِى ٱلثُّلُثِ ﴾ أى فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية ذكورهم وإناثهم فى الميراث سواء ﴿ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَآرٍّ ﴾ أى بقصد أن تكون الوصية للمصلحة لا بقصد الإضرار بالورثة أى فى حدود الوصية بالثلث لقوله ﷺ : « الثلث والثلث كثير » ﴿ وَصِيَّةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أى أوصاكم الله بذلك وصية ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ أى عالم بما شرع ، حليم لا يعاجل بالعقوبة لمن خالف أمره .

ثم يعقب الله تعالى تعقيباً نهائياً على تلك الوصايا والفرائض ، حيث يسميها الله سبحانه وتعالى بالحدود ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ﴾ أى تلك الأحكام المذكورة شرائع الله التى حدّها لعباده ليعملوا بها ولا يعتدوها ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أى من يطع ما أمر الله فيما حكم وأمر رسوله فيما بيّن فلم يزد بعض الورثة ولم ينقص بعضهم بحيلة أو وسيلة بل تركهم على حكم الله وفريضته وقسمته ، يدخله الله جنات النعيم التى تجرى من تحت أشجارها وأبنيتها الأنهار ماكثين فيها أبداً وذلك هو الفلاح العظيم ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ ﴾ يجعله مخلداً فى نار جهنم لا يخرج منها أبداً وله عذاب شديد من الإهانة والإذلال والعذاب .

هل الدَّين مقدم على الوصية وما هى حدود الوصية ؟ وهل تجوز الوصية لوارث ؟

قال ابن كثير فى التفسير : « أجمع علماء السلف والخلف على أن الدين مقدم على الوصية ، وتقديم الدين مفهوم واضح لأنه يتعلق بحق الآخرين . فلابد من استيفائه من مال المورث الذى استدان ما دام قد ترك مالاً ، توفية بحق الدائن وتبرئة لذمة المدين . وقد شدد الإسلام فى إبراء الذمة من الدين ، عن أبى قتادة ﷺ قال : قال رجل : يا رسول الله ، أرأيت إن قتلت فى سبيل الله أتكفر عنى خطاياى ؟ فقال رسول الله ﷺ :« نعم إن قتلت وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر» ثم قال : « كيف قلت ؟ » فأعاد عليه فقال : « نعم إلا الدين . فإن جبريل أخبرنى بذلك » أخرجه مسلم ومالك والترمذى والنسائى .

وعن أبى قتادة كذلك : أتى النبى ﷺ برجل ليصلى عليه فقال ﷺ : « صلوا على صاحبكم فإن عليه ديناً » فقلت : هو علّى يا رسول الله . قال : « بالوفاء » قلت : بالوفاء ، فصلى عليه .

وأما الوصية فلأن إرادة الميت تعلقت بها . وقد جعلت الوصية لتلافى بعض الحالات التى يحجب فيها بعض الورثة بعضاً ، وقد يكون المحجوبون معذورين ، أو تكون هناك مصلحة عائلية فى توثيق العلاقات بينهم وبين الورثة ، وإزالة أسباب الحسد والنزاع قبل أن تنبت ، ولا وصية لوارث ، ولا وصية فى غير الثلث ، وفى هذا ضمان ألا يجحف المورث بالورثة فى الوصية .

ولبيان خطورة الوصية على صاحبها نذكر هنا الحديث المروىّ عن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة ، فإذا أوصى وحاف فى وصيته فيختم له بشر عمله ، فيدخل النار ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال : ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم ﴿ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ .

ما المقصود بالكلالة ؟

سُئل أبو بكر ﷺ عن الكلالة فقال : أقول فيها برأيى فإن يكن صواباً فمن الله وإن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان . والله ورسوله بريئان منه : الكلالة من لا ولد له ولا والد . فلما ولّى عمر قال : إنى لأستحى أن أخالف أبا بكر فى رأى رآه [رواه ابن جرير وغيره] .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الله تعالى تولى قسمة الميراث والتركات بنفسه فلا يحل لأحد أن يغير منها شيئاً .

٢ ـ أن شرع الله ونظامه ومنهجه واجب التنفيذ والالتزام ، وأن المؤمن مطالب بطاعة الله تعالى فيما أمره به وفيما نهاه عنه ، وأن الله تعالى يجزى على هذه الطاعة خير الجزاء ، وذلك بجنات تجرى من تحتها الأنهار مع خلود فيها إلى أبد الآبدين .

٣ ـ أن طاعة رسول الله ﷺ فيما بلَّغَ عن ربه سبحانه وتعالى من طاعة الله تعالى فهى واجبة يثاب على فعلها ، ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ وكذلك لقوله : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ ﴾ .

٤ ـ معصية الله ورسوله إثم ومعصية وتخريب لنظام الحياة وإشاعة للظلم وحرمان أصحاب الحقوق من حقوقهم ؛ وتضييع للمرأة والأسرة وحقوقها ؛ لذا كان جزاء ذلك الخلود فى جهنم والعذاب المهين .

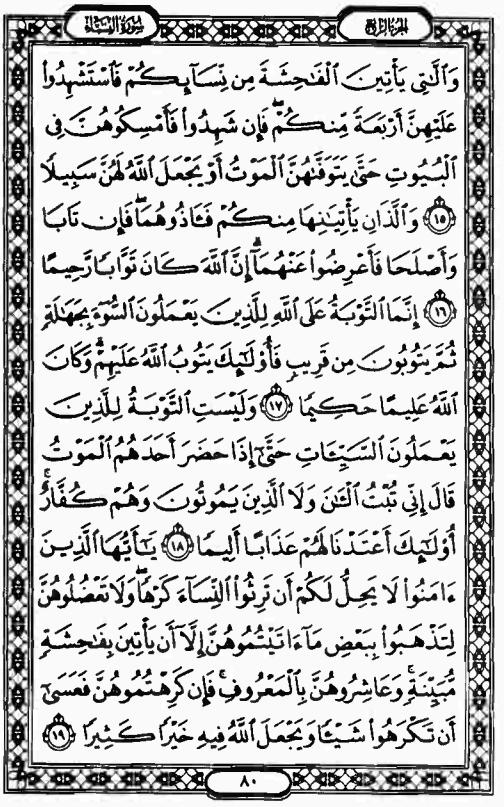
وَالَّتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِن نِّسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا
عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ فَإِن شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي
الْبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا
﴿١٥﴾ وَاللَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا
وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا
﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ
ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ
اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ
قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ
أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ
لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ
مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ
أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾
٨٠

معانى الكلمات :

الفاحشة : كل ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال والمقصود الزنا . **فأمسكوهن** : فاحبسوهن . **سبيلاً** : خلاصاً بالزواج أو إقامة الحدِّ . **واللذان** : الذكر والأنثى .

بجهالة : بسفاهة . **أعتدنا** : هيأنا .

لا تعضلوهن : لا تمسكوهُنَّ مضارة لهن .

فاحشة مبينة:النشوز وسوء الخُلق،أو الزنا.

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم عظم قبح فاحشة الزنا فلا نقربه ؛ لأنه كان فاحشة وساء سبيلاً .

٢ ـ أن نعلم التوبة بشروطها المقبولة ، ومتى لا تقبل من العبد .

٣ ـ أن نعلم أن الحدود شرعت لصيانة المجتمع وتأمينه من التلوث الأخلاقى والانحراف والهلاك .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق القرآنى تنظيمه لحياة المجتمع المسلم ، واستنقاذه من رواسب الجاهلية ، بتطهير هذا المجتمع من الفاحشة ، وعزل العناصر الملوثة التى تقارفها ، من الرجال والنساء ، مع فتح باب التوبة لمن يشاء من هذه العناصر أن يتوب ويتطهر ، ويرجع إلى المجتمع عفيفاً نظيفاً ، ثم باستنقاذ المرأة مما كانت ترزح تحته فى الجاهلية من خسف وهوان ، ومن عسف وظلم ، حتى تقوم الأسرة على أساس سليم ركين .

ويقول صاحب الظلال: « إن الإسلام يمضى هنا على طريقه فى تطهير المجتمع وتنظيفه ؛ وقد اختار ـ فى أول الأمر ـ عزل الفاحشات من النسوة ، وإبعادهن عن المجتمع ، متى ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة . وإيذاء الرجال ، الذين يأتون الفاحشة الشاذة ، ويعملون عمل قوم لوط ، ولم يحدد نوع الإيذاء ومداه ثم اختار ـ فيما بعد ـ عقاب هؤلاء النسوة وعقاب الرجال أيضاً عقوبة واحدة هى حد الزنا كما ورد فى آية سورة النور ، وهى الجلد ، وكما جاءت بها السنة أيضاً ، وهى الرجم . والهدف الأخير من هذه أو تلك هو صيانة المجتمع من التلوث ، والمحافظة عليه نظيفاً عفيفاً شريفاً .

وفى كل حالة وفى كل عقوبة يوفر التشريع الإسلامى الضمانات ، التى يتعذر معها الظلم والخطأ والأخذ بالظن والشبهة ؛ فى عقوبات خطيرة ، تؤثر فى حياة الناس تأثيراً خطيراً . فهو يحدد النساء اللواتى ينطبق عليهن الحد ، ويحدد نوع الرجال الذين يستشهدون على وقوع الفعل، وبعد تشريع العقاب المطهر من الفاحشة يشرع التوبة والإصلاح .

وهى كما **يقول صاحب الظلال** : « تعديل أساس فى الشخصية والكينونة والوجهة والطريق والعمل والسلوك . ومن ثم تقف العقوبة ، وتكف الجماعة عن إيذاء هذين المنحرفين الشاذين . وهذا هو الإعراض عنهما فى هذا الموضع : أى الكف عن الإيذاء .

ويقول صاحب الظلال : عن الإيماءة اللطيفة فى التشريع بالتعقيب بأن الله كان تواباً رحيماً ، التوجيه قلوب العباد للتوبة يقول : الذى شرع العقوبة ، هو الذى يأمر بالكف عنها عند التوبة والإصلاح . ليس للناس من الأمر شىء فى الأولى ، وليس لهم شىء فى الأخيرة ، إنما هم ينفذون شريعة الله وتوجيهه . وهو تواب رحيم يقبل التوبة ويرحم التائبين .

واللمسة الثانية فى هذه الإيماءة ، هى توجيه قلوب العباد للاقتباس من خُلق الله والتعامل فيما بينهم بهذا الخلق . وإذا كان الله تواباً رحيماً ، فينبغى لهم أن يكونوا هم فيما بينهم متسامحين رحماء ؛ أمام الذنب الذى سلف ، وأعقبه التوبة والإصلاح . إنه ليس تسامحاً فى الجريمة ، وليس رحمة بالفاحشين ، فهنا لا تسامح ولا رحمة . ولكن سماحة ورحمة بالتائبين المتطهرين المصلحين ، وقبولهم فى المجتمع ، وعدم تذكيرهم وتعييرهم بما كان منهم من ذنب تابوا عنه ، وتطهروا منه ، وأصلحوا حالهم بعده ، فينبغى ـ حينئذ ـ مساعدتهم على استئناف حياة طيبة نظيفة كريمة ، ونسيان جريمتهم حتى لا تثير فى نفوسهم التأذى كلما واجهوا المجتمع بها ، مما قد يحمل بعضهم على الانتكاس ، والارتكاس ، واللجاج فى الخطيئة ، وخسارة أنفسهم فى الدنيا والآخرة . والإفساد فى الأرض وتلويث المجتمع ، والنقمة عليه فى ذات الأوان .

وقد عدلت هذه العقوبة كذلك ـ فيما بعد ـ فروى أهل السنن حديثاً مرفوعاً عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

وتبدو فى هذه الأحكام عناية المنهج الإسلامى بتطهير المجتمع المسلم من الفاحشة ؛ ولقد جاءت هذه العناية مبكرة : فالإسلام لم ينتظر حتى تكون له دولة فى المدينة ، وسلطة تقوم على شريعة الله ، وتتولاها بالتنفيذ ، فقد ورد النهى عن الزنا فى سورة الإسراء المكية : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ كما ورد النهى فى سورة المؤمنون : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ ﴾ .. وكرر هذا القول فى سورة المعارج .

ولكن الإسلام لم تكن له فى مكة دولة ، ولم تكن له فيها سلطة ؛ فلم يسن العقوبات لهذه الجريمة التى نهى عنها فى مكة ، إلا حين استقامت له الدولة والسلطة فى المدينة ، ولم يعتبر النواهى والتوجيهات وحدها كافية لمكافحة الجريمة ، وصيانة المجتمع من التلوث ، لأن الإسلام دين واقعى ، يدرك أن النواهى والتوجيهات وحدها لا تكفى، ويدرك أن الدين لا يقوم بدون دولة وبدون سلطة . وأن الدين هو المنهج أو النظام الذى تقوم عليه حياة الناس العملية ، وليس مجرد مشاعر وجدانية تعيش فى الضمير ، بلا سلطة وبلا تشريع ، وبلا منهج محدد ، ودستور معلوم.

على أن الإسلام لا يُغلق الأبواب فى وجه الخاطئين والخاطئات ، ولا يطردهم من المجتمع إن أرادوا أن يعودوا إليه متطهرين تائبين ، بل يفسح لهم الطريق ـ ويشجعهم على سلوكه ، ويبلغ من التشجيع أن يجعل الله قبول توبتهم ـ متى أخلصوا فيها ـ حقاً عليه سبحانه يكتبه على نفسه بقوله الكريم . وليس وراء هذا الفضل زيادة لمستزيد .

ثم إن التوبة التى يقبلها الله، والتى تفضل فكتب على نفسه قبولها هى التى تصدر من النفس ، فتدل على أن هذه النفس قد أنشئت نشأة أخرى . قد هزها الندم من الأعماق ، ورجها رجاً شديداً حتى استفاقت فتابت وأنابت ، وهى فى فسحة من العمر ، وبحبوحة من الأمل ، واستجدت رغبة حقيقية فى التطهر ، ونية حقيقية فى سلوك طريق جديد .. وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن ، فهذه التوبة هى توبة المضطر ، توبة الذى يتوب لأنه لم يعد لديه متسع لارتكاب الذنوب ولا فسحة لمقارفة الخطيئة . وهذه لا يقبلها الله ؛ لأنها لا تنشئ صلاحاً فى القلب ولا صلاحاً فى الحياة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن العدل والأمان أن تكون لكل جريمة عقوبة تناسبها ، وأن العقوبات التى وضعها لتلك الجرائم هى أنسب العقوبات ؛ لأن واضعها هو رب الناس وخالقهم وراحمهم الذى سخر لهم ومن أجلهم ما فى السموات والأرض .

٢ ـ أن قبول الله لتوبة التائبين تعنى أن يتخلق المسلمون فيما بينهم بالتسامح والعفو ، فلا أحد أغير من الله عز وجل ، وإذا كان سبحانه يعفو عمن عصاه وخالف منهجه وانتهك محارمه ، إذا تاب وندم وعزم على ألا يعود لخطئه ، فإنه أحرى بالمسلمين أن يكون هذا سلوكهم .

٣ ـ التوبة التى تفضل الله بها هى ما كان صاحبها أتى ما أتى من الذنوب بجهالة لا بعلم وإصرار ثم تاب من قريب زمن .

٤ ـ لا تقبل توبة من حشرجت نفسه وظهرت عليه علامات الموت ، وكذا الكافر من باب أولى لا تقبل له توبة بالإيمان إذا عاين علامات الموت كما لم تُقبل توبة فرعون عند الغرق .

وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ
إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ
بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ
بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ
ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ
ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ
وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ
وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ
فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ
مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾
٨١

معانى الكلمات :

بهتاناً : باطلاً ، وظلماً .

أفضى بعضكم إلى بعض : وَصَلَ ، بالجماع أو الخلوة الصحيحة . **ميثاقاً غليظاً** : عهداً مؤكداً . **مقتاً** : مبغوضاً مستحقراً جداً .

ربائبكم : بنات زوجاتكم من غيركم .

فلا جناح عليكم : فلا إثم عليكم . **حلائل أبنائكم** : زوجات أبنائكم .

الذين من أصلابكم: أى أبناؤكم الحقيقيون لا أبناؤكم بالتبنى .

تجمعوا بين الأختين : أى فى الزواج منهما معاً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نتعامل مع المرأة وفق المكانة اللائقة التى رفعها الإسلام إليها .

٢ ـ أن نحسن معاملة الزوجة . كما أمر الله ورسوله .

٣ ـ أن نعلم أنه ليس لأحد أن يحل أو يحرم سوى الله سبحانه وتعالى.

المحتوى التربوى :

هذا الدرس يتحدث عن المرأة ، تواصلاً مع المبدأ العام الذى افتتح به السورة ليرفع مستوى المشاعر الإنسانية فى الحياة الزوجية من المستوى الحيوانى الهابط إلى المستوى الإنسانى الرفيع . ويظللها بظلال الاحترام والمودة والتعاطف والتجمل ؛ وليوثق الروابط والوشائج ، فلا تنقطع عند الصدمة الأولى ، وعند الانفعال الأول .

والحكمة وراء هذا التغيير هو سوء معاملة الجاهلية العربية للمرأة .. فلم تعرف لها حقوقاً ونزلت بها دون منزلة الرجل نزولاً شنيعاً ، جعل منها سلعة تباع وتشترى ، وذلك فى الوقت الذى تتخذ منها تسلية ومتعة بهيمية ، وتطلقها فتنة للنفوس ، وإغراء للغرائز ، ومادة للتشهى والغزل العارى المكشوف فجاء الإسلام ليرفع عنها هذا كله، ويردها إلى مكانها الطبيعى فى كيان الأسرة وإلى دورها الجدى فى نظام الجماعة البشرية .

فحرم الإسلام وراثة المرأة كما تورث السلعة والبهيمة ، كما حرم العضل الذى تسامه المرأة ، ويتخذ أداة للإضرار بها ـ إلا فى حالة الإتيان بالفاحشة ، وذلك قبل أن يتقرر حد الزنا المعروف ـ وجعل للمرأة حريتها فى اختيار من تعاشره ابتداء أو استئنافاً . بكراً أم ثيباً مطلقة أو متوفى عنها زوجها . وجعل العشرة بالمعروف فريضة على الرجال ـ حتى فى حالة كراهية الزوج لزوجته ما لم تصبح العشرة متعذرة ـ ونتنسم فى هذه الحالة نسمة الرجاء فى غيب الله وفى علم الله . كى لا يطاوع المرء انفعاله الأول ، فيبت وشيجة الزوجية العزيزة فما يدريه أن هنالك خيراً فيما يكره ، هو لا يدريه . خيراً مخبوءاً كامناً ، لعله إن كظم انفعاله واستبقى زوجته سيلاقيه .

ويقول صاحب الظلال : « والإسلام الذى ينظر إلى البيت بوصفه سكنا وأمناً وسلاماً ، وينظر إلى العلاقة بين الزوجين بوصفها مودة ورحمة وأنساً ، ويقيم هذه الآصرة على الاختيار المطلق ، كى تقوم على التجاوب والتعاطف والتحاب .. هو الإسلام ذاته الذى يقول للأزواج : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ كى يستأنى بعقدة الزوجية فلا تفصم لأول خاطر ، وكى يستمسك بعقدة الزوجية فلا تنفك لأول نزوة ، وكى يحفظ لهذه المؤسسة الإنسانية الكبرى جديتها فلا يجعلها عُرضة لنزوة العاطفة المتقلبة ، وحماقة الميل الطائر هنا وهناك » .

ثم يتناول النص التشريعى المحرمات من النساء ، وهى خطوة فى تنظيم الأسرة ، وفى تنظيم المجتمع على السواء، ولم يذكر النص علة التحريم ـ لا عامة ولا خاصة ـ فكل ما يذكر من علل ، إنما هو استنباط ورأى وتقدير ، وهذه المحرمات كلها كانت محرمة فى عرف الجاهلية فيما عدا حالتين اثنتين : ما نكح الآباء من النساء ، والجمع بين الأختين فقد كانتا جائزتين ـ على كراهة من المجتمع الجاهلى . ولكن الإسلام ـ وهو يحرم هذه المحارم كلها لم يستند إلى عرف الجاهلية فى تحريمها . إنما حرمها ابتداء ، مستنداً إلى سلطانه الخاص وجاء النص : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ ﴾ ... إلخ .

والأمر فى هذا ليس أمر شكليات ؛ إنما هو أمر هذا الدين كله . وإدراك العقدة فى هذا الأمر هو إدراك لهذا الدين، وللأصل الذى يقوم عليه : أصل الألوهية وإخلاصها لله وحده .

إن هذا الدين يقرر أن التحليل والتحريم هو من شأن الله وحده ، لأنهما أخص خصائص الألوهية ، فلا تحريم ولا تحليل بغير سلطان من الله . فالله وحده ـ هو الذى يحل للناس ما يُحل ، ويحرم على الناس ما يحرم . وليس لأحد غيره أن يشرع فى هذا وذاك ، وليس لأحد أن يدعى هذا الحق .. لأن هذا مرادف تماماً لدعوى الألوهية !

ومن ثم فإن الجاهلية تحرم أو تحلل ، فيصدر هذا التحريم والتحليل عنها باطلاً بطلاناً أصلياً، غير قابل للتصحيح ، لأنه لا وجود له منذ الابتداء . فإذا جاء الإسلام إلى ما أحلت الجاهلية أو

حرمت ، فهو يحكم ابتداء ببطلانه كلية بطلاناً أصلياً ، ويعتبره غير قائم . بما أنه صادر من جهة لا تملك إصداره ـ لأنها ليست إلهاً ـ ثم يأخذ هو فى إنشاء أحكامه إنشاء .

ويقول صاحب الظلال : « هذه النظرية الإسلامية فى الحل والحرمة تشمل كل شىء فى الحياة الإنسانية ، ولا يخرج عن نطاقها شىء فى هذه الحياة .. إنه ليس لأحد غير الله أن يحل أو يحرم ، فى نكاح ، ولا فى طعام ، ولا فى شراب ، ولا فى لباس ، ولا فى حركة ، ولا فى عمل ، ولا فى عقد ، ولا فى تعامل ، ولا فى ارتباط ، ولا فى عرف، ولا فى وضع ، إلا أن يستمد سلطانه من الله ، حسب شريعة الله » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ لا يجوز للرجال أن يضيقوا على النساء بسوء المعاشرة حتى يضطروهن إلى أن يفدين أنفسهن ، ويطلبن الطلاق فى مقابل بعض الأموال أو التنازل عن حقوقهن المشروعة أو عن بعضها .

٢ ـ تحريم مناكح الجاهلية إلا ما وافق الإسلام منها ، وخاصة أزواج الآباء فزوجة الأب محرمة على الابن ولو لم يدخل بها الأب وطلقها أو مات عنها .

٣ ـ أن الالتزام بالاستجابة لله تعالى فيما أحل وفيما حرّم هو تسليم بأن اختيار الله لعباده أحسن وآمن من اختيارهم لأنفسهم ، وأن فى اختيار الله لعباده نظماً وحكمة جليلة ومصلحة أكيدة فى دعم العلاقات الاجتماعية .

٤ ـ أن منهج الله وشريعته وأحكامه تستهدف استقرار الأسرة والمجتمع ، وإحاطة العلاقة بين الزوجين بالنظم والقوانين التى تحفظ لكل منهما حقوقه تجاه الآخر وتلزمه بأداء واجباته نحوه .

٥ ـ أن من الواجب الذى فرضه الله تعالى على الزوج أن يحسن عشرة زوجه حتى لو كرهها أو كره الاستمرار معها فى حياته ، فإنه على الرغم من ذلك مطالب بأن يعاملها بالمعروف .

٦ ـ أن الله تعالى . من أجل بناء أسرة مسلمة نقية الأخلاق والأحساب والأنساب ـ قد حرّم الزواج من عدد من النساء حصرهن العلماء فى أربعة عشر نوعاً من النساء هن :

الأم والبنت والأخت والعمة والخالة وبنت الأخ وبنت الأخت ، والأم من الرضاعة والأخت من الرضاعة ، وأم الزوجة ، وبنت الزوجة بشرط أن يكون قد دخل بالأم ، وزوجة الابن من الصلب ، والجمع بين الأختين ، وكل متزوجة من النساء .

۞ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَٰلِكُمْ أَنْ تَبْتَغُوا
بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ
مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿٢٤﴾ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ
الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ
فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ
بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ
بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ
أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ
مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ
الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
﴿٢٥﴾ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ
مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾

٨٢

معانى الكلمات :

المحصنات : المتزوجات . **محصنين غير مسافحين** : أعفاء ، بعيدين عما لا يحل لهم .

أجورهن : مهورهن . **لا جناح عليكم** : لا إثم ولا حرج عليكم . **طولاً** : فضلاً وزيادة وغنى وسعة . **أن ينكح**: أن يتزوج. **المحصنات المؤمنات** : الحرائر المسلمات . **فتياتكم** : إمائكم .

غير مسافحات : غير مجاهرات بالزنا .

متخذات أخدان : مصاحبات أصدقاء للزنا سراً .

خشى العنت : خاف الزنا والإثم .

سنن : مناهج وطرائق .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان يُسر الإسلام وسماحته فى نظام الزواج إعفافاً للمسلمين .

٢ ـ بيان الحكمة من الزواج فى الإسلام .

٣ ـ بيان منَّة الله على عباده المؤمنين فى التشريع والتعليل للأحكام .

المحتوى التربوى :

بعد بيان المحرمات من النساء حرمة ذاتية ، يأتى بيان المحرمات اللاتى فى عصمة رجال آخرين لأنهن محصنات بالزواج منهم : فهن محرمات على غير أزواجهن ، لا يحل نكاحهن ... وذلك تحقيقاً للقاعدة الأولى فى نظام المجتمع الإسلامى ، من قيامه على قاعدة الأسرة ، وجعلها وحدة المجتمع ، وصيانة هذه الأسرة من كل شائبة ، ومن كل اختلاط فى الأنساب ، ينشأ من «شيوعية» الاتصال الجنسى ، أو ينشأ من انتشار الفاحشة ، وتلوث المجتمع بها .

ومما يلاحظ أن معظم المحرمات التى حرمها القرآن فى الآيات السابقة ، كانت محرمة فى الجاهلية ولم يكن يباح منها فى عرف الجاهلية إلا ما نكح الآباء ، والجمع بين الأختين ـ على كره من العرف الجاهلى ذاته لنكاح زوجات الآباء . وقد كان يسمى عندهم «مقيتاً» نسبة إلى المقت ! ولكن لما جاء القرآن يُقرر حرمة هذه المحرمات ، لم يرجع فى تحريمها إلى عرف الجاهلية هذا ، إنما

قال ـ سبحانه : ﴿ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ﴾ . لأن الإسلام يعتبر أن الأصل الوحيد الذى يقوم عليه التشريع للناس هو أمر الله وإذنه . باعتبار أنه هو مصدر السلطان الأول والأخير . فكل ما لم يقم ابتداء على هذا الأصل فهو باطل بطلاناً أصلياً ، غير قابل للتصحيح المستأنف .

وبعد بيان المحرمات ، وربطها بأمر الله وعهده ، أخذ السياق فى بيان المجال الذى يملك فيه الناس أن يلبوا دوافع فطرتهم فى التزاوج ، والطريقة التى يحب الله أن يلتقى بها أفراد الجنسين لتكوين البيوت . وإقامة مؤسسات الأسرة ، والتمتع بهذا الالتقاء فى نظافة وطهر وجد تليق بهذا الأمر العظيم .

وفيما وراء هذه المحرمات المذكورة فالنكاح حلال ، وللراغبين فيه أن يبتغوا النساء ، بأموالهم ـ أى لأداء صداقهن ـ لا لشراء أعراضهن بالأموال من غير نكاح ومن ثم قال : ﴿ مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ﴾ . وجعلها قيداً وشرطاً للابتغاء بالأموال .

ويقول صاحب الظلال : « والقرآن يصور طبيعة النوع الذى يريده الله .. فهو إحصان .. هو حفظ وصيانة .. هو حماية ووقاية .. هو إحصان للرجل وإحصان للمرأة وكذلك للبيت والأسرة والأطفال . إحصان لهذه المؤسسة التى تقوم على هذا الأساس ثابتة راسخة وطيدة » .

ويقرر القرآن كيف يُبتغى بالأموال .. فهو يجعل صداق المرأة فريضة لها مقابل الاستمتاع بها . فمن أراد أن يستمتع بامرأة من الحلائل ـ وهن ما وراء ذلكم من المحرمات ـ فالطريق هو ابتغاؤها للإحصان ـ أى عن طريق الزواج لا عن أى طريق آخر ـ وعليه أن يؤدى لها صداقها حتماً مفروضاً ، لا نافلة ، ولا تطوعاً منه ، ولا إحساناً ، فهو حق لها عليه مفروض . وليس له أن يرثها وراثة بلا مقابل ، وليس له أن يقايض عليها مقايضة كما كان يقع فى زواج الشغار فى الجاهلية . وهو أن يتزوج الرجل امرأة فى مقابل أن يدفع لوليها امرأة من عنده ، كأنهما بهيمتان ! أو شيئان !

وبعد تقرير هذا الحق للمرأة وفرضيته ، يدع الباب مفتوحاً لما يتراضى عليه الزوجان بينهما وفق مقتضيات حياتهما المشتركة ، ووفق مشاعرهما وعواطفهما أحدهما تجاه الآخر . فإذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها ، فقد رخص له فى الزواج من غير الحرة ، إذا هو لم يصبر حتى يستطيع الزواج من حرة ، وخشى المشقة ؛ أو خشى الفتنة .

ويقول صاحب الظلال : « إن هذا الدين يتعامل مع « الإنسان » فى حدود فطرته ، وفى حدود طاقته . وفى حدود واقعه ، وفى حدود حاجاته الحقيقية .. وحين يأخذ بيده ليرتفع به من حضيض الحياة الجاهلية إلى مرتقى الحياة الإسلامية لا يغفل فطرته وطاقته وواقعه وحاجاته الحقيقية ، بل يلبيها كلها وهو فى طريقه إلى المرتقى الصاعد .. إنه فقط لا يعتبر واقع الجاهلية هو الواقع الذى لا فكاك منه . فواقع الجاهلية هابط ، وقد جاء الإسلام ليرفع البشرية من وهدة هذا الواقع ! إنما هو يعتبر واقع « الإنسان » فى فطرته وحقيقته .. واقتدار الإنسان على الترقى واقع

من هذا الواقع .. فليس الواقع فقط هو مجرد تلبطه فى وحل الجاهلية ـ أية جاهلية ـ فمن الواقع كذلك مقدرته ـ بما ركب فى فطرته ـ على الصعود والتسامى عن ذلك الوحل أيضاً ! والله ـ سبحانه ـ هو الذى « يعلم واقع الإنسان » كله ، لأنه يعلم « حقيقة الإنسان » كلها . هو الذى خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه : ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ؟

ثم تنتهى الآية ـ ببيان أن الزواج من الإماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة . فمن استطاع الصبر ـ فى غير مشقة ولا فتنة ـ فهو خير ، ومن قبل ذلك جاء الإسلام ليضع الحق فى نصابه ؛ وليأخذ الجانى بالعقوبة ، مراعياً جميع اعتبارات « الواقع » وليجعل حد الأمة بعد الإحصان نصف حد الحرة قبل الإحصان . فلا يترخص فيعفيها من العقوبة ، ويجعل إرادتها ملغاة كلية من ارتكاب الفعل تحت وطأة الظروف ـ فهذا خلاف الواقع . ولا يغفل واقعها كذلك فيعاقبها عقاب الحرة وواقعها يختلف عن واقع الحرة . ولا يتشدد تشدد الجاهلية مع الضعاف دون الأشراف !!

ومنهج الإسلام فى ذلك كله أن الله لا يريد أن يعنت عباده ، ولا أن يشق عليهم ، ولا أن يوقعهم فى الفتنة . وإذا كان دينه الذى اختاره لهم ، يريد منهم الاستعلاء والارتفاع والتسامى ، فهو يريد منهم هذا كله فى حدود فطرتهم الإنسانية ، وفى حدود طاقتهم الكامنة ، وفى حدود حاجاتهم الحقيقية كذلك ، ومن ثم فهو منهج ميسر ، يلحظ الفطرة ، ويعرف الحاجة ، ويقدر الضرورة ، وبغيته فى ذلك تكريم الإنسان ، وربطه بالموكب الإيمانى الموصول ، فى الطريق اللاحب الطويل ليشعر بحقيقة أصله وأمته ومنهجه وطريقه .. إنه من هذه الأمة المؤمنة بالله ، تجمعها آصرة المنهج الإلهى ، على اختلاف الزمان والمكان واختلاف الأوطان والألوان ، وتربطها سنة الله المرسومة للمؤمنين فى كل جيل ، ومن كل قبيل .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ تحريم المرأة المتزوجة حتى يفارقها زوجها بطلاق أو موت وحتى تنقضى عدتها .

٢ ـ وجوب المهور ، وجواز إعطاء المرأة من مهرها لزوجها ما تشاء .

٣ ـ الإسلام دين اليسر والسماحة لا دين العنت والمشقة .

٤ ـ منَّة الله تعالى علينا فى تعليله الأحكام لنا لتطمئن نفوسنا إلى هديه وشرعه ، ولتستعين على تنفيذ أوامره .

٥ ـ منَّة الله الكبرى هداية المؤمنين إلى طرق الصالحين وسبيل الفالحين ممن كانوا قبلهم .

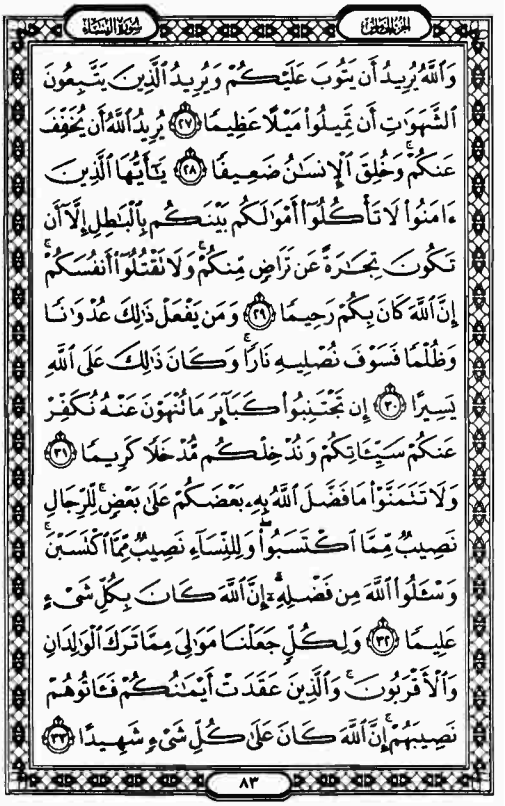
وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ
ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ
عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن
تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا
وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ
يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ
عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ
نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ
وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ
عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ
وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ
نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾
٨٣

معانى الكلمات :

الذين يتبعون الشهوات : الفُجار .

تميلوا ميلاً عظيماً : تنحرفوا عن الحق .

ضعيفاً : لا يصبر على الشهوات .

نصليه ناراً : ندخله إياها . **سيئاتكم** : ذنوبكم الصغائر . **مدخلاً كريماً** : مكاناً شريفاً . **مما ترك**:ورثة عُصبة يرثون مما ترك.

الذين عقدت أيمانكم : الذين حالفتموهم وعاهدتموهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ـ بيان إرادة الله بالإنسان اليسر لا العسر .

٢ـ بيان حكمة تشريع الإسلام فى النهى عن أكل أموال الناس بالباطل .

٣ ـ بيان أن اجتناب الكبائر يكفر السيئات .

٤ ـ بيان أهمية الرضا بما قسم الله للإنسان .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات تبدو روعة التشريع وجميل عفو المشرع ـ عز وجل ـ فما يريده الله للناس بمنهجه وطريقته هو التوبة . والهداية ، وتجنب المزالق ـ يريد أن يعينهم على التسامى فى المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة ، وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات ، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله ، ولم يشرعها لعباده ؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم .

وتبدو كذلك إرادة التخفيف بمراعاة فطرة الإنسان ، وطاقته ، وحاجاته الحقيقية ، مع وضع سياج الحماية الذى يقيها التبدد وسوء الاستعمال فقال ـ عز وجل : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وكثيرون يحسبون أن التقيد بمنهج الله ـ وبخاصة فى علاقات الجنسين ـ شاق مجهد . والانطلاق مع الذين يتبعون الشهوات ميسر مريح ! وهذا وهم كبير ....

والنظر إلى الواقع فى حياة المجتمعات التى « تحررت » ! من قيود الدين والأخلاق والحياء فى هذه العلاقة ، يكفى لإلقاء الرعب فى القلوب . لو كانت هنالك قلوب !

لقد كانت فوضى العلاقة الجنسية هى المعول الأول الذى حطم الحضارات القديمة . حطم الحضارة الإغريقية ، والرومانية ، والفارسية .. وهذه الفوضى ذاتها هى التى أخذت تحطم الحضارة الغربية الراهنة ؛ وقد ظهرت آثارها ـ التحطيم ـ شبه كاملة فى انهيارات فرنسا التى سبقت فى هذه الفوضى ؛ وبدأت هذه الآثار تظهر فى أمريكا والسويد وإنجلترا ، وغيرها من دول الحضارة الحديثة .

ويتواصل السياق القرآنى فى تعميق الأسس التربوية ودعائمها لتأسيس الأسرة والمجتمع المسلم ، فيتناول جانباً من العلاقات المالية فى المجتمع المسلم ، لتنظيم طرق التعامل بين الأفراد عامة ولضمان وتقرير حق النساء كالرجال فى الملك والكسب ـ كل حسب نصيبه ـ وأخيراً لتنظيم التعامل فى عقود الولاء التى كانت سارية فى الجاهلية وفى القسم الأول من صدر الإسلام ، لتصفية هذا النظام ، وتخصيص الميراث بالأقارب ومنع عقود الولاء الجديدة .

ويقول صاحب الظلال: « وهنا فى هذه الآيات نجد النهى للذين آمنوا عن أكل أموالهم بينهم بالباطل ، ـ وبيان الوجه الحلال للربح فى تداول الأموال ـ وهو التجارة ـ ونجد إلى جانبه تصوير أكل الأموال بالباطل بأنه قتل للأنفس ؛ وهلكة وبوار . ونجد إلى جانبه كذلك التحذير من عذاب الآخرة ومس النار ! .. وفى الوقت ذاته نجد التيسير والوعد بالمغفرة والتكفير ، والعون على الضعف والعفو عن التقصير .. كذلك نجد تربية النفوس على عدم التطلع إلى ما أنعم الله على البعض ، والتوجه إلى الله ـ صاحب العطاء ـ وسؤال من بيده الفضل والعطاء ، وذلك التوجيه مصاحب لتقرير حق الرجال ونصيبهم فيما اكتسبوا ، وحق النساء ونصيبهن فيما اكتسبن ، وهذا وذلك مصحوب بأن الله كان بكل شىء عليماً .. كما أن بيان التصرف فى عقود الولاء ، والأمر بالوفاء بها نجده مصحوباً بأن الله كان على كل شىء شهيداً .. وهى لمسات وجدانية مؤثرة مصاحبة للتشريع ، وتوجيهات تربوية من صنع العليم بالإنسان ، وتكوينه النفسى ، ومسالك نفسه ودروبها الكثيرة » .

وفى سياق الحديث عن الأموال ، وتداولها فى الجماعة المسلمة ، تجىء تكملة فيما بين الرجال والنساء من ارتباطات ومعاملات فينهى الله عن تمنى ما فضل الله بعض المؤمنين على بعض .. من أى نوع من أنواع التفضيل ، فى الوظيفة والمكانة ، وفى الاستعدادات والمواهب ، وفى المال والمتاع ، وفى كل ما تتفاوت فيه الأنصبة فى هذه الحياة .. والتوجه بالطلب إلى الله ، وسؤاله من فضله مباشرة ؛ بدلاً من إضاعة النفس حسرات فى التطلع إلى التفاوت ، وبدلًا من المشاعر المصاحبة لهذا التطلع من حسد وحقد ؛ ومن حنق كذلك ونقمة ، أو من شعور بالضياع

والحرمان ، والتهاوى والتهافت أمام هذا الشعور .. وما قد ينشأ عن هذا كله من سوء ظن بالله ؛ وسوء ظن بعدالة التوزيع .. حيث تكون القاصمة ، التى تذهب بطمأنينة النفس ، وتورث القلق والنكد ؛ وتستهلك الطاقات فى وجدانات خبيثة ، وفى اتجاهات خبيثة . بينما التوجه مباشرة إلى فضل الله ، هو ابتداء التوجه إلى مصدر الإنعام والعطاء ، الذى لا ينقص ما عنده بما أعطى ، ولا يضيق بالسائلين المتزاحمين على الأبواب ! وهو بعد ذلك موئل الطمأنينة والرجاء ، ومبعث الإيجابية فى تلمس الأسباب ، بدل بذل الجهد فى التحرق والغيظ أو التهاوى والانحلال !

وقال السدى فى هذا الصدد : إن رجالاً قالوا : إنا نريد أن يكون لنا من الأجر الضعف على أجر النساء ، كما لنا فى أجر السهام سهمان ! وقالت النساء : إنا نريد أن يكون لنا مثل أجر الشهداء ، فإننا لا نستطيع أن نقاتل ، ولو كتب علينا القتال لقاتلنا ! فأبى الله ذلك ، ولكن قال لهم : سلونى من فضلى . قال ليس بعرض الدنيا ... وروى مثل ذلك عن قتادة .

وبعد أن ذُكر أن للرجال نصيباً مما اكتسبوا ، وللنساء نصيباً مما اكتسبن .. وبين ـ فيما سلف ـ أنصبة الذكور والإناث فى الميراث .. ذكر أن الله جعل لكل موالى من قرابته يرثونه . يرثونه مما آل إليه من الوالدين والأقربين .. فالمال يظل يتداول بهذا الإرث جيلاً بعد جيل يرث الوارثون ثم يضمون إلى ميراثهم ما يكتسبون ؛ ثم يرثهم من يلونهم من الأقربين .. وهى صورة تمثل دورة المال فى النظام الإسلامى ؛ وأنها لا تقف عند جيل ؛ ولا تتركز فى بيت ولا فرد .. إنما هو التوارث المستمر ، والتداول المستمر ، وحركة التوزيع الدائبة ؛ وما يتبعها من تعديل فى المالكين ، وتعديل فى المقادير ؛ بين الحين والحين.

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن من رحمة الله بالإنسان وإرادته به اليسر لا العسر ، أنه ـ سبحانه ـ يخفف عنه ، لعلمه بضعفه وقلة احتماله ، فلم يشرع له منهجاً يشق عليه تطبيقه ، ولا حرّم عليه ما يستحيل عليه الامتناع عنه .

٢ ـ أن تشريع النهى عن أكل أموال الناس بالباطل ، يستهدف استقرار الحياة الاقتصادية بين الناس ، وإقرار العدل ومقاومة الظلم .

٣ ـ أن اجتناب الكبائر بإخلاص يؤدى إلى تكفير السيئات ، وتلك رحمة من الله تعالى بعباده الذين يسيئون إلى أنفسهم بمعصية الله تعالى .بل يزيدهم الله تعالى من بره وكرمه فيدخلهم الجنة .

٤ ـ المسلم مطالب بأن يرضى بم قسم الله له ، وقد روى أحمد بسنده عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « اتق المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .... » الحديث .

الجزء الخامس — سورة النساء

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ
عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ
قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ
نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ
وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ
بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن
يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا
٣٥ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ (الحزب ٩)
إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ
ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ
وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن
كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ
مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ٣٧

٨٤

معانى الكلمات :

قوامون على النساء : قيام الولاة المصلحين ورعاية الأسرة. **قانتات :** مطيعات لله ثم لأزواجهن . **حافظات للغيب :** صائنات للعرض والمال فى غيبة الزوج. **نشوزهن :** عصيانهن . **عظوهن:**ذكروهن . **اهجروهن فى المضاجع:**اتركوا فراشهن،والنوم معهن. **شقاق :** خلافًا وعداوة . **الجار الجنب :** الجار البعيد سكناً أو ليس له قرابة تربطه بجاره . **الصاحب بالجنب :** الرفيق فى أى أمر حسن . **ابن السبيل :** المسافر الذى انقطع عن أهله وماله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان المفهوم الصحيح لقوامة الرجال على النساء .

٢ ـ بيان صفات المرأة الصالحة .

٣ ـ بيان الحكمة من تشريع الله ؛ معاملة الزوجة بالعظة ثم بالهجر ثم بالضرب .

٤ ـ أن نعرف كيف نتقى النشوز من قبل النساء وكيف نضمن سلامة بناء الأسرة .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق القرآنى تشريعاته فى تنظيم مؤسسة الأسرة ، وضبط الأمور فيها ؛ وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات ؛ وبيان الإجراءات التى تتخذ لضبط أمور هذه المؤسسة ؛ والمحافظة عليها من زعازع الأهواء والخلافات ؛ واتقاء عناصر التهديم فيها والتدمير ، جهد المستطاع .

فيتحدث السياق عن ولاية وقوامة الرجال على النساء فى المسؤولية والتوجيه فهم ، قائمون عليهن بالأمر والنهى، والإنفاق والتوجيه كما يقوم الولاة على الرعية : ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ ﴾ أى بسبب ما منحهم الله من العقل والتدبير ، وخصهم به من الكسب والإنفاق ، فهم يقومون على النساء بالحفظ والرعاية والتأديب ، قال أبو السعود : « والتفضيل للرجال لكمال العقل وحسن التدبير ورزانة الرأى ومزيد القوة ، ولذلك خصوا بالنبوة والإمامة والولاية والشهادة والجهاد وغير ذلك » .

والقوامة هى فى الحقيقة درجة (مسؤولية وتكليف) لا درجة (تفضيل وتشريف) إذ هى مساهمة فى تحمل الأعباء ، وتوزيع الاختصاصات ، وتحديد الواجبات داخل هذه المؤسسة الصغيرة « الأسرة » التى اهتم بها الإسلام أيما اهتمام ، وليست القوامة كما يفهمها البعض للسيطرة والاستعلاء وإلغاء شخصية المرأة فى البيت ، وإنما هى وظيفة لإدارة هذه المؤسسة الخطيرة وصيانتها وحمايتها ، فلابد لكل أمر مهم من رئيس يتولى التدبير والقيادة ، وقد جعل الله للرجال حق القيام على النساء بالتأديب والتدبير والحفظ والصيانة . وبعد بيان واجب الرجل وحقه والتزاماته وتكاليفه فى القوامة ، يجىء بيان طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة وسلوكها وتصرفها الإيمانى فى محيط الأسرة ، فمن طبيعة المرأة المؤمنة الصالحة ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون قانتة .. مطيعة .. والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة ! وكذلك هى حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها فى غيبته ـ وبالأولى فى حضوره ـ فلا تبيح من نفسها فى نظرة أو نبرة ـ بله العرض والحرمة ـ ما لا يباح إلا له هو ـ بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة . وما لا يباح ، لا تقرره هى ، ولا يقرره هو : إنما يقرره الله ـ سبحانه : ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها ـ فى غيبته أو فى حضوره ـ ما لا يغضب هو له أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع ! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله .. إن هناك حكماً واحداً فى حدود هذا الحفظ ؛ فعليها أن تحفظ نفسها ﴿ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ . فأما غير الصالحات .. فهن الناشزات ، والمرأة الناشز هى التى تستعلى بالعصيان والتمرد والإسلام لا ينتظر حتى يقع النشوز فعلاً وتتصدع مؤسسة الأسرة ، وتسقط مهابة القوامة ، بل يشرع الإجراء الوقائى للمبادرة بإصلاح النفوس والأوضاع ، لا لزيادة إفساد القلوب ، وملئها بالبغض والحنق ، أو بالمذلة والرضوخ الكظيم ! فيبدأ بالموعظة وهى أولى واجبات القيم ورب الأسرة ، وحين لا تجدى ولا تنفع يأتى الإجراء الثانى إسقاط أمضى أسلحة المرأة التى تعتز بها فيقهر دوافعه تجاه إغرائها : ﴿ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « على أن هناك أدباً معيناً فى هذا الإجراء .. إجراء الهجر فى المضاجع وهو ألا يكون هجراً ظاهراً فى غير مكان خلوة الزوجين .. لا يكون هجراً أمام الأطفال ، يورث فى نفوسهم شراً وفساداً .. ولا هجراً أمام الغرباء يذل الزوجة أو يستثير كرامتها ، فتزداد نشوزاً. فالمقصود علاج النشوز لا إذلال الزوجة ، ولا إفساد الأطفال .. ! وحين لا تجدى الموعظة ولا يجدى الهجر فى المضاجع يأتى الإجراء الثالث : ﴿ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ واستصحاب الهدف من هذه الإجراءات كلها يمنع أن يكون هذا الضرب تعذيباً للانتقام والتشفى .. ويمنع أن يكون إهانة للإذلال والتحقير . ويمنع أن يكون أيضاً للقسر والإرغام على معيشة لا ترضاها . ويحدد أن يكون ضرب تأديب مصحوب بعاطفة المؤدب المربى ، كما يزاوله الأب مع أبنائه وعلى أية حال فقد جعل لهذه الإجراءات حدًا تقف عنده ـ متى تحققت الغاية ـ غاية الطاعة ـ هى المقصودة . وهى طاعة الاستجابة لا طاعة الإرغام . فهذه ليست طاعة تصلح لقيام مؤسسة الأسرة .

واستكمالاً للحماية الوقائية لبنيان الأسرة من التصدع يلجأ للوسيلة الأخيرة ـ عند خوف الشقاق ـ فيبادر قبل وقوع الشقاق فعلاً .. ببعث حكم من أهله ، وحكم من أهلها ـ يجتمعان فى هدوء . بعيدين عن الانفعالات النفسية ، والرواسب الشعورية والملابسات المعيشية راغبين فى خير الزوجين وأطفالهما ومؤسستهما المهددة بالدمار .. وفى الوقت ذاته هما مؤتمنان على أسرار الزوجين . فإن أرادا إصلاحاً فإن الله يقدر الصلاح بينهما والتوفيق .

وبعد ختام الجولة التربوية الأولى لإرساء دعائم الأسرة المسلمة وفق التشريع القرآنى ، تأتى الجولة الثانية لإرساء القاعدة الأولية التى يَقُوم عليها المجتمع المسلم ـ قاعدة التوحيد الخالص ـ التى تنبع منها كل التصورات الأساسية للعلاقات الكونية والحيوية والإنسانية،يأتى الأمر الأول بعبادة الله . والنهى الثانى لتحريم عبادة أحد ـ معه ـ سواه ، ثم ينطلق الأمر إلى الإحسان إلى الوالدين ـ على التخصيص ـ ولذوى القربى على التعميم ، ويعقب على الأمر بالإحسان ، بتقبيح الاختيال والفخر ، والبخل والتبخيل وكتمان نعمة الله وفضله ، والرياء فى الإنفاق ؛ والكشف عن سبب هذا كله ، وهو عدم الإيمان بالله واليوم الآخر ، واتباع الشيطان وصحبته ، وهنا تتضح حقيقة ثابتة فى المنهج الإسلامى وهى ربط كل مظاهر السلوك ، وكل دوافع الشعور ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة ، فالتوحيد يتبعه الإحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتعلق بثوابه فى الآخرة ؛ فى أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله . فهو لا يخلق رزقه ، ولا ينال إلا من عطاء الله . والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل ، وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها فى إحسان أو عطاء ؛ أو الإنفاق رياء وتظاهراً طلباً للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد ! لذا كان الجزاء العذاب المهين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ قوامة الرجال على النساء لا تعنى السلطة أو الاستبداد ، وإنما قوامة مقيدة بحسن المعاشرة وحسن الرعاية وتحمل المسؤولية .

٢ ـ من صفات المرأة الصالحة المؤمنة : الطاعة للزوج عن رضا وحب ، وحفظ الغيب بما حفظ الله فى نفسها ومال زوجها وتربية أبنائها .

٣ ـ للزوج حق تأديب زوجته وفق حدود الشرع مع مراعاة التدرج فى مراحله من الموعظة إلى الهجر فى المضاجع إلى الضرب غير المبرح بنية الإصلاح لا الإذلال .

٤ ـ إخلاص العبادة لله وحده هو الحل لكل مشكلات الحياة .

٥ ـ الإحسان جزء من الدين ولا إسلام على وجه صحيح إلا به ، ويبدأ بالوالدين ولا ينتهى حتى يضم ابن السبيل وما ملكت اليمين .

٦ ـ الرياء والرغبة فى الحصول على رضا الناس من أسوأ صفات الإنسان ، ومن أسباب إحباط العمل وعدم قبوله عند الله .

وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ
قَرِينًا ﴿٣٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟
مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ
وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ
ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ
وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى
سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ
أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً
فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ
ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾
٨٥

معانى الكلمات :

رئاء الناس : مراءة لهم وسمعة لا لوجه الله . **قريناً** : ملازماً .

جنباً : من عليه جنابة ، وهى الأثر الناتج من التقاء الرجل والمرأة .

عابرى سبيل : مسافرين فقدوا الماء فتيمموا .

الغائط : كناية عن الحدث (التبول أو التبرز) .

لامستم : جامعتم .

فامسحوا : وذلك بإمرار اليد على التراب أو الأرض ثم إمرارها على الوجه واليدين بقصد الطهارة من الحدث الأصغر والأكبر .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة من التدرج فى تحريم الخمر .

٢ ـ بيان يسر الإسلام فيما شرعه من التيمم بدلاً من الوضوء أو الغسل عند المرض أو فقد الماء .

٣ ـ أن نتعلم كيفية التيمم .

المحتوى التربوى :

تواصل هذه الآيات رسمها للسمات الأساسية للمنهج الإسلامى ، وهى ربط كل مظاهر السلوك ، وكل دوافع الشعور ، وكل علاقات المجتمع بالعقيدة . فإفراد الله ـ سبحانه ـ بالعبادة والتلقى ، يتبعه الإحسان إلى البشر ، ابتغاء وجه الله ورضاه ، والتعلق بثوابه فى الآخرة ؛ فى أدب ورفق ومعرفة بأن العبد لا ينفق إلا من رزق الله . فهو لا يخلق رزقه ، ولا ينال إلا من عطاء الله .. والكفر بالله وباليوم الآخر يصاحبه الاختيال والفخر ، والبخل والأمر بالبخل ، وكتمان فضل الله ونعمته بحيث لا تظهر آثارها فى إحسان أو عطاء ؛ أو الإنفاق رياء وتظاهراً طلبًا للمفخرة عند الناس ؛ إذ لا إيمان بجزاء آخر غير الفخر والخيلاء بين العباد !

وحين ينتهى من عرض سوءات نفوسهم وسلوكهم ؛ ومن عرض أسبابها من الكفر بالله واليوم الآخر ، وصحبة الشيطان واتباعه ؛ ومن الجزاء المهيأ لأصحاب هذه السوءات ، وهو

العذاب المهين عندئذ يسأل فى استنكار ماذا عليهم ؟ ما الذى يخشونه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإنفاق من رزق الله . والله عليم بهم وبما أنفقوا وبما استقر فى قلوبهم من بواعث . والله لا يظلم مثقال ذرة فلا خشية من الجهل بإيمانهم وإنفاقهم ولا خوف من الظلم فى جزائهم .. بل هناك الفضل والزيادة ، بمضاعفة الحسنات ، والزيادة من فضل الله بلا حساب ؟

ثم يختم الأوامر والنواهى ، والتحضيض والترغيب ، بمشهد من مشاهد القيامة ؛ يجسم موقفهم فيه ، ويرسم حركة النفوس والمشاعر كأنها شاخصة متحركة ، ويمهد لمشهد القيامة ، بأن الله لا يظلم مثقال ذرة ، ويضاعف الحسنات ، ويؤتى فضلاً عنها أجراً من لدنه عظيماً . فهى الرحمة إذن لمن يستحقون الرحمة ، والفضل المطلق لمن كانوا يرجون الفضل ، بالإيمان والعمل . أما الذين لم يقدموا إيماناً ، ولم يقدموا عملاً . فكيف يكون حالهم يوم القيامة؟ إنها المهانة والخزى ، والخجل والندامة .. مع الاعتراف حيث لا جدوى من الإنكار .

ويبدأ درس جديد بالأمر بعبادة الله والنهى عن إشراك شىء به .. والصلاة أمسّ الشعائر بمعنى العبادة . وفى هذا الدرس بيان لبعض أحكامها ، وأحكام الطهارة الممهدة لها . ويعالج السياق ظاهرة الخمر التى كانت متغلغلة فى المجتمع . فلقد عالجها ببضع آيات من القرآن ؛ وعلى مراحل ، وفى رفق وتؤدة ، وكسب المعركة . دون حرب ، ودون تضحيات ودون إراقة دماء .. والذى أريق فقط هو دنان الخمر وزقاقها وجرعات منها كانت فى أفواه الشاربين ـ حين سمعوا آية التحريم ـ فمجوها من أفواههم . ولم يبلعوها .

يقول صاحب الظلال : « لقد انتصر القرآن ، وأفلح المنهج وفرض سلطانه ـ دون أن يستخدم السلطان .. لأنه أخذ النفس الإنسانية بسلطان الله وخشيته ومراقبته ، وبحضور الله ـ سبحانه ـ فيها حضوراً لا تملك الغفلة عنه لحظة من زمان .. وعالج الفطرة بطريقة خالق الفطرة .. لقد ملأ فراغها باهتمامات كبيرة لا تدع فيها فراغاً تملؤه بنشوة الخمر ، وخيالات السكر ، وما يصاحبها من مفاخرات وخيلاء فى الهواء .

ملأ فراغها باهتمامات . منها : نقل هذه البشرية الضالة الشاردة كلها ، من تيه الجاهلية الأجرد ، وهجيرها المتلظى ، وظلامها الدامس ، وعبوديتها المذلة . إلى رياض الإسلام البديعة ونوره الوضىء ، وحريته الكريمة التى تشمل الدنيا والآخرة ! وملأها بالإيمان .. فلم تعد فى حاجة إلى نشوة الخمر . تحلق بها فى خيالات كاذبة ! وهى ترف بالإيمان المشع إلى الأعلى الوضىء.. وتعيش بقرب الله ونوره وجلاله .. وتذوق طعم هذا القرب ، فتمج طعم الخمر ونشوتها ، وترفض خمارها وصداعها ؛ وتستقذر لوثتها وخمودها فى النهاية ! » .

كما منعت الآيات ـ الذين آمنوا ـ أن يقربوا الصلاة وهم سكارى ـ حتى يعلموا ما يقولون ـ كذلك منعتهم من الصلاة وهم جنب ـ إلا عابرى سبيل ـ حتى يغتسلوا .

ويمضى السياق ميسراً على المؤمنين فيشمل حالة المسافر ـ عندما يصيبه حدث أكبر فيكون جنباً فى حاجة إلى الغسل أو حدث أصغر ، فيكون فى حاجة إلى الوضوء ، لأداء الصلاة وكذلك من كان مريضاً ، فألم به حدث أكبر أو أصغر ، أو بمن جاء من الغائط فأصابه حدث أصغر

يقتضى الوضوء ، أو بمن لامس النساء ، كل هؤلاء وجب عليهم الوضوء قبل الدخول فى الصلاة فإن لم يجدوا ماءً يغنى عن الغسل والوضوء : فالتيمم .

وطريقة التيمم : إما خبطة واحدة بالكفين على الصعيد الطاهر ثم نفضهما ثم مسح الوجه ، ثم مسح اليدين إلى المرفقين بهما .. وإما خبطتان : خبطة يمسح بها الوجه ، وخبطة يمسح بها الذراعين .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا كله يدل بالإضافة إلى ما سيأتى فى السورة من بيان كيفية الصلاة عند الخوف ـ فى ميدان القتال ـ على حرص شديد من المنهج الربانى ، على الصلاة .. بحيث لا ينقطع المسلم عنها لسبب من الأسباب (ويبدو ذلك كذلك فى المرض حيث تؤدى الصلاة من قعود ، أو من اضطجاع ، أو من نوم . وتؤدى بحركات من جفنى العين عندما يشق تحريك الجسم والأطراف !)

إنها هذه الصلة بين العبد والرب . الصلة التى لا يحب الله للعبد أن ينقطع عنها لأنه ـ سبحانه ـ يعلم ضرورتها لهذا العبد ، فالله ـ سبحانه ـ غنى عن العالمين . ولا يناله من عبادة العباد شىء إلا صلاحهم هم . وإلا ما يجدون فى الصلاة والاتصال بالله ، من العون على تكاليفهم ، والاسترواح لقلوبهم ، والاطمئنان لأرواحهم . والإشراق فى كيانهم ؛ والشعور بأنهم فى كنف الله ، وقربه ، ورعايته ، بالطريقة التى تصلح لفطرتهم . والله أعلم بفطرتهم هذه ، وبما يصلح لها وما يصلحها .. وهو أعلم بمن خلق . وهو اللطيف الخبير » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الحث على أن يكون الإنفاق ابتغاء لمرضاة الله ، خالياً من الرياء وحب الظهور والسمعة ، وحسن الصيت .

٢ ـ أن الصلاة رأس العبادات ، وأن المؤمن لا يؤديها إلا وهو كامل الوعى مدرك لما يقول فى صلاته من قراءة أو دعوات ، لذا حُرِّمَ شرب الخمر أو أى مسكر أو نحوه مما يذهب العقل أو يصيبه بالخلط عند الدخول فى الصلاة .

٣ ـ أن الخمر قد حرمت مطلقاً ، حرم شربها والاتجار فيها وحملها وحفظها ولو كانت وديعة أو أمانة من أى شخص ، لما فيها من ضرر يلحق الفرد والمجتمع ، ولما يسبب تعاطيها من إيقاع العداوة والبغضاء بين الذين يتعاطونها، ولما تسببه من ذهاب عقله وذهاب كرامته ، ووقاره ؛ ولأن الله تعالى لا يحرم على عباده إلا ما يضرهم تعاطيه أو التعامل معه .

٤ ـ يسر الإسلام فيما شرعه من التيمم بدلاً من الوضوء أو الغسل عند المرض أو فقد الماء .

٥ ـ تحريم الصلاة وقراءة القرآن ودخول المسجد على الجنب حتى يغتسل (أو يتيمم عند فقد الماء أو تعذر استعماله) .

وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِأَعۡدَآئِكُمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيّٗا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرٗا ﴿٤٥﴾
مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ
سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَٱسۡمَعۡ غَيۡرَ مُسۡمَعٖ وَرَٰعِنَا لَيَّۢا بِأَلۡسِنَتِهِمۡ
وَطَعۡنٗا فِي ٱلدِّينِۚ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا
لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٤٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا
مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا
عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ
ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا
﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ
وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ
وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا
مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴿٥١﴾
٨٦

معانى الكلمات :

يحرفون الكلم : يغيرون أو يفسدون بالباطل .

راعنا : يريدون الرعونة ، ويقصدون سبه وتنقيصه ﷺ .

وأقوم : أعدل وأصوب . **نطمس وجوهاً** : نتركهم فى الضلالة . **نردها على أدبارها** : نصرفها عن الحق . **ما دون ذلك** : غير الشرك من الذنوب لمن يشاء .

يزكون أنفسهم : يمدحونها بالبراءة من الذنوب .

فتيلاً : قدر الخيط الرقيق فى شق نواة البلح .

إثماً مبيناً : كذباً وافتراءً ظاهراً . **الجبت والطاغوت**: كل معبود من دون الله ، **وقيل: الجبت** : السحر ، **والطاغوت** : الشيطان .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان طبائع اليهود المقيتة من سوء أدبهم مع الله، وإضلالهم للمهتدين .

٢ ـ أن نعلم عداوة اليهود للذين آمنوا ، وأن نحذر مكائدهم لإضلالنا .

٣ ـ ألا نبالغ فى الثناء على الآخرين وتزكيتهم ، ولا نزكى أنفسنا فهذا من صفات اليهود .

المحتوى التربوى :

بعد التمهيد للدولة الإسلامية الناشئة وإرساء قواعدها التنظيمية يأتى هذا الدرس لإعلان بداية المعركة مع المعسكرات المعادية المتربصة بالجماعة المسلمة الناشئة فى المدينة . ففى هذه الآيات يتعجب الله من حال اليهود وتصرفاتهم فى مواجهة الدين الجديد والجماعة التى تمثله ، فقد آتاهم الله التوراة ؛ لتكون هداية لهم من ضلالتهم الأولى ، ولكنهم يدَعَون هذا النصيب ، يدعون الهداية ويشترون الضلالة عن علم وعن قصد وعمد ، لا عن جهل أو خطأ أو سهو ! وهو أمر عجيب مُستنكر .

ليس هذا فحسب ، بل يريدون أن يضلوا المهتدين بشتى الوسائل والطرق ؛ لذا يحذر الله ـ سبحانه وتعالى ـ المسلمين من ألاعيب اليهود وتدبيرهم ليثير نفوس المسلمين ضد الذين

يريدون لهم الضلالة بعد الهدى ، ومن ثم يعقب على إبراز هذه المكائد من اليهود ، بالتصريح بأن هؤلاء أعداء المسلمين ، وبتطمين الجماعة المسلمة إلى ولاية الله ونصره إزاء تلك المكائد .

ومن هذه المكائد ، وسوء أدبهم مع الله عز وجل : أن يحرفوا الكلام عن المقصود به ؛ **ويقول صاحب الظلال** : « والأرجح أن ذلك يعنى تأويلهم لعبادات التوراة بغير المقصود منها ، وذلك كى ينفوا ما فيها من دلائل الرسالة الأخيرة ومن أحكام وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير ؛ وتبعاً لهذا على صحة رسالة النبى ﷺ . وتحريف الكلم عن المقصود به ، ليوافق الأهواء ، ظاهرة ملحوظة فى كل رجال دين ينحرفون عن دينهم ، ويتخذونه حرفة وصناعة ، يوافقون بها أهواء ذوى السلطان فى كل زمان ؛ وأهواء الجماهير التى تريد التفلت من الدين ، واليهود أبرع من يصنع ذلك ، وإن كان فى زماننا هذا من محترفى دين المسلمين من ينافسون ـ فى هذه الخصلة ـ اليهود !

ثم بلغ من التوائهم وسوء أدبهم مع رسول الله ﷺ أن يقولوا : سمعنا يا محمد ما تقول ، ولكننا عصينا ! فلا نؤمن ولا نتبع ولا نطيع . ثم يضيفون إلى التبجح سوء الأدب والخلق والالتواء أيضاً ، إذ يقولون للرسول ﷺ : « واسمع غير مسمع ـ وراعنا » فهم يقصدون : اسمع ـ لا سمعت ، ولا كنت سامعاً ! ـ أخزاهم الله ـ وراعنا يميلونها إلى وصف « الرعونة» .

وبالرغم من سوء تأدبهم يقرر الله لهم المنهج اللائق بهم ، والأدب الجدير بمن أوتوا نصيباً منه ويطمعهم ـ بعد ذلك كله ـ فى الهداية والجزاء الحسن والفضل والخير من الله لو ثابوا إلى الطريق القديم ، وذلك مع بيان حقيقة طبيعتهم : ﴿ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

بعد ذلك يتجه الخطاب إلى الذين أوتوا الكتاب ـ اليهود ـ دعوة إلى الكتاب المصدق لما بين أيديهم ، وتهديداً لهم بالمسخ واللعن المتوقعين من وراء عنادهم وأفاعيلهم ، ودفعاً لهم بالشرك والانحراف عن التوحيد الخالص ، الذى عليه دينهم ، والله لا يغفر أن يشرك به ، وفى الوقت ذاته بيان عام لحدود المغفرة الواسعة ؛ وبشاعة الشرك حتى إنه ليخرج من هذه الحدود .

ثم يمضى القرآن ، وهو يخوض المعركة بالجماعة المسلمة مع اليهود فى المدينة ـ يعجب من أمر هؤلاء الخلق ؛ الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار ؛ ويثنون على أنفسهم ؛ ويزكونها ؛ بينما هم يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويتطاولون على الله ورسوله ـ كما سبق ـ وبينما هم يؤمنون بالجبت والطاغوت ـ كاذبين على الله فى تزكيتهم لأنفسهم، وفى زعمهم أنهم مقربون إليه مهما عملوا من السوء !

يقول صاحب الظلال : « إنه ليس الناس هم الذين يزكون أنفسهم ؛ ويشهدون لها بالصلاح والقرب من الله واختيار الله ، إنما الله هو الذى يزكى من يشاء ، فهو أعلم بالقلوب والأعمال ، ولن يظلم الناس شيئاً ، إذا هم تركوا هذا التقدير لله ـ سبحانه ـ واتجهوا إلى العمل ، لا إلى

الادعاء فلئن عملوا وهم ساكتون متواضعون فى حياء من الله ـ سبحانه ـ وبدون تزكية ولا ادعاء فلن يغبنوا عند الله ؛ ولن يُنسى لهم عمل ؛ ولن يُبخس لهم حق.

وما أرى أننا ـ الذين ندَّعى الإسلام ؛ لأننا نحمل أسماء المسلمين ، ونعيش فى أرض كان يسكنها المسلمون ! بينما نحن لا نجعل الإسلام فى شىء من منهجنا فى الحياة . ما أحسبنا ونحن ندعى الإسلام ، فنشوه الإسلام بصورتنا وواقعنا ؛ ونؤدى ضده شهادة منفرة منه ! ثم ونحن ندعى أن الله مختار لنا لأننا أمة محمد ﷺ ، بينما دين محمد ومنهجه مطرود من واقع حياتنا طرداً ، ما أحسبنا إلا فى مثل هذا الموضع الذى يعجب الله ـ سبحانه ـ منه رسوله ﷺ ويدفع أصحابه بافتراء الكذب على الله ، وارتكاب هذا الإثم المبين والعياذ بالله !

إن دين الله منهج حياة ، وطاعة الله هى تحكيم هذا المنهج فى الحياة . والقرب من الله لا يكون إلا بطاعته ، فلننظر أين نحن من الله ودينه ومنهجه ، ثم لننظر أين نحن من حال هؤلاء اليهود ، الذين يعجب الله من حالهم ، ويدفعهم بإثم الافتراء عليه فى تزكيتهم لأنفسهم ! فالقاعدة هى القاعدة . والحال هى الحال . وليس لأحد عند الله نسب ولا صهر ولا محاباة !!

ويستأنف السياق عجبه من أمر أولئك الذين يزكون أنفسهم ، بينما هم يؤمنون بالباطل وبالأحكام التى لا تستند إلى شرع الله ، وليس لها ضابط يعصمها من الطغيان : « الجبت والطاغوت » بينما هم يشهدون للشرك والمشركين بأنهم أهدى من المؤمنين بكتاب الله ومنهجه وشريعته ، ويحمل عليهم بعد التعجب من أمرهم ، وذكر هذه المخازى عنهم ـ حملة عنيفة ؛ ويرذلهم ترذيلاً شديداً ؛ ويظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ، والأسباب الحقيقية التى تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم التى وضحته الآيات .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، والله تعالى يعلم عداوتهم لهذا الدين كما جاء فى سورة المائدة : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ﴾ .

٢ ـ الله تعالى ولى المؤمنين وناصرهم ، ومن كان الله وليه وناصره ، فلن تضيره عداوة الأعداء ولا بغضاؤهم ، مهما كثروا وتنوعوا ، المهم أن يكون على مستوى الالتزام بما يوجبه الإيمان من اعتقاد صحيح وعمل صالح .

٣ ـ أن الذنوب جميعاً ـ ما عدا الشرك بالله ـ تتناولها مغفرة الله تعالى ، حتى لو كانت من الكبائر ، ولكن لابد من التوبة والاستغفار ـ عند ارتكاب الذنوب .

٤ ـ ينبغى على المسلم ألا يزكى نفسه ، ولا يزكى غيره أو يمدحه ، لما رواه مسلم بسنده عن المقداد بن الأسود ﷺ قال : أمرنا رسول الله ﷺ : أن نحثوا فى وجوه المداحين التراب .

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾
أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ
يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا
آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾
فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا
﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ
جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ
كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ
لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾ إِنَّ
اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ
النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا
بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

معانى الكلمات :

نقيراً : قدر النقرة فى ظهر النواة .

صَدّ عنه : كفر به .

نضجتْ جلودهم : احترقت وتلاشت .

ظليلاً : دائماً لا حر فيه ولا برد .

الأمانات : كل ما يؤتمن عليه الإنسان .

أولى الأمر منكم : قادتكم ورؤسائكم .

تنازعتم فى شىء : اختلفتم فى الحكم على أمر من الأمور .

أحسن تأويلاً : أسلم وأجمل عاقبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان فضل الله على عباده ـ بكونه وحده مالك الملك .

٢ ـ بيان أهمية أداء الأمانات لأهلها، ومفهوم الأمانة بمعناها الواسع والشامل .

٣ ـ بيان وجوب طاعة الله ورسوله وأولى الأمر .

٤ ـ أن نعلم أن السعادة فى الدنيا والفلاح فى الآخرة فى التحاكم لكتاب الله وسنة نبيه والرضا بقضائهما .

المحتوى التربوى :

دأب السياق القرآنى على إظهار كوامن طباع اليهود الفاسدة ، وأحقادهم ومكائدهم للمؤمنين حتى لا تبقى خالجة من شك لأحد فى أن اليهود أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، فها هو يظهر كامن طباعهم من الحسد والبخل ، ويكشف عن الحقيقة التى تجعلهم يقفون هذا الموقف إلى جانب انحرافهم عن دين إبراهيم ـ الذى يفخرون بالانتساب إليه .

ومع ذلك فهم لا يطيقون أن ينعم الله على عبد من عباده بشىء من عنده ، وما ذلك لشىء إلا للحسد الذى ملأ صدورهم ، فهم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله من النبوة والتمكين فى الأرض مع أنهم غارقون فى فضل الله من عهد إبراهيم الذى آتاه الله وآله الكتاب

والحكمة ـ وهى النبوة ـ وآتاهم كذلك المُلك والسيادة ، وهم لم يرعوا الفضل ، ولم يحتفظوا بالنعمة ، ولم يصونوا العهد القديم ، بل كان منهم فريق من غير المؤمنين .

ويقول صاحب الظلال : « إنه من ألأم الحسد : أن يحسد ذو النعمة الموهوب ! لقد يحسد المحروم ويكون الحسد منه رذيلة ! أما أن يحسد الواجد المغمور بالنعمة ، فهذا الشر الأصيل العميق ! شر يهود ! المتميز الفريد ! ومن ثم يكون التهديد بالسعير ، هو الجزاء المقابل لهذا الشر النكير . ﴿ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾ .

ويختم السياق هذا الصدود للإيمان فى آل إبراهيم ، بقاعدة شاملة فى الجزاء ، جزاء المكذبين ، وجزاء المؤمنين ، هؤلاء وهؤلاء أجمعون فى كل دين وفى كل حين ؛ ويعرض هذا الجزاء فى صورة مشهد من مشاهد القيامة العنيفة الرعيبة .

ويقول صاحب الأساس :« بعد أن ذكر الله ـ عز وجل ـ فى الآيات السابقة كفر أهل الكتاب، وأنه لا يغفر شرك من أشرك به ، يتبين فى آيتين من هذه الآيات الثلاث التى هى خاتمة هذا المقطع جزاء الكافرين والمؤمنين ، ثم يُصِدرْ للمؤمنين لايكون المؤمن تقياً إلا بهما . يخبر الله تعالى عما يعاقب به فى نار جهنم مَنْ كفر بآياته ، وصَدّ عن رسله ، بأنه سيدخلهم ناراً دخولاً يحيط بجميع أجرامهم وأجزائهم ، ثم أخبر عن دوام عقوبتهم ونكالهم ، وأنه كلما احترقت جلودهم ، بُدِّلوا جلوداً غيرها ، حتى إنه ليتبدل فى الساعة مائة مرة كما روى عن عمر ﷺ ، وإذْ بيَّن عقوبة الكافرين ، بيّن فيها بعد جزاء المؤمنين ، فأخبر عن مآل السعداء فى جنات عدن التى تجرى فيها الأنهار فى جميع فجاجها .محالها، وأرجائها ، حيث شاؤوا ، وأين أرادوا ، وهم خالدون فيها أبداً ، لا يحولون ولا يزولون ، ولا يبغون عنها حولاً ، ولهم فيها أزواج مطهرة من الحيض والنفاس والأذى ، ويدخلهم ظلاً عميقاً كثيراً غزيراً طيباً أنيقاً .

ثم أمر الله عز وجل ـ المؤمنين أمرين ـ كلاهما ضرورى فى قضية التقوى :

الأمر الأول : فى أداء الأمانات إلى أهلها ، وهو يعّم جميَع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله ـ عز وجل ـ على عباده من الصلاة، والزكاة ، والصيام ، والكفارات ، والنذور ، وغير ذلك ، مما هو مؤتمن عليه لا يطّلع عليه العباد ، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك ، مما يأتمنون به من غير اطلاع وبيّنة على ذلك فأمر الله عز وجل بأدائها ـ ومن ذلك قيام كل إنسان برعاية مسؤولياته .

والأمر الثانى : أمر منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس ، ولا عدل إلا بإقامة حكم الله ، وكل تصور للعدل غير ذلك ، إنما هو انحراف وجهل وجور ، ثم أثنى الله عز وجل على ما يأمرنا به

من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس ، ثم ختم الله الآية بأنه سميع لأقوالنا بصيرٌ بأفعالنا .

ثم يبين شرط الإيمان وحدّ الإسلام ، فى الوقت الذى يبين قاعدة النظام الأساسى فى الجماعة المسلمة ؛ وقاعدة الحكم ، ومصدر السلطان ، وكلها تبدأ وتنتهى عند التلقى من الله وحده ، والرجوع إليه فيما لم ينص عليه نصاً ، من جزئيات الحياة التى تعرض فى حياة الناس على مدى الأجيال ؛ مما تختلف فيه العقول والآراء والأفهام .. ليكون هناك الميزان الثابت ، الذى ترجع إليه العقول والآراء والأفهام !

ويقول صاحب الظلال : « إن الحاكمية لله وحده فى حياة البشر ـ ما جل منها وما دق ، وما كبر منها وما صغر ـ والله قدس شريعته وأودعها قرآنه . وأرسل بها رسولاً بيَّنها للناس ، ولا ينطق عن الهوى . فسنته ﷺ من ثم شريعة من شريعة الله ، والله واجب الطاعة . ومن خصائص ألوهيته أن يسن الشريعة . فشريعته واجبة التنفيذ . وعلى الذين آمنوا أن يطيعوا الله ـ ابتداء ـ وأن يطيعوا الرسول ـ بما له من هذه الصفة ، صفة الرسالة من الله ، فطاعته إذن من طاعة الله ، الذى أرسله بهذه الشريعة ، وبيانها للناس فى سنته . وسنته وقضاؤه ـ على هذا ـ جزء من الشريعة واجب النفاذ ، والإيمان يتعلق ـ وجوداً وعدماً ـ بهذه الطاعة وهذا التنفيذ بنص القرآن ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا .

١ ـ من فضل الله ـ تعالى ـ على عباده أنه لم يعط الملك لأحد ، حتى لا يتحكم فى رقاب الناس وحياتهم .

٢ ـ ضرورة أداء الأمانات التى تشمل العقائد والعبادات والودائع وجميع التكاليف والأعمال والأسرار والحواس والأعضاء باستخدام كل ذلك فى طاعة الله والبعد عما حرم الله .

٣ ـ وجوب طاعة الله ورسوله وولاة المسلمين من حكام وعلماء وفقهاء ؛ لأن طاعة الرسول من طاعة الله ، وطاعة ولى الأمر من طاعة الرسول لقوله ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن عصى أميرى فقد عصانى » .

٤ ـ وجوب رد المتنازع فيه عقيدة أو عبادة أو قضاءً إلى الكتاب والسنة ووجوب الرضا بقضائهما .

٥ ـ العاقبة الحميدة والحياة السعيدة فى رد أمة الإسلام أمورها وما تتنازع فيه إلى كتاب ربها وسنة نبيها .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ
وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ
صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي
أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ
جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

٨٨

معانى الكلمات :

الطاغوت : كل ما عبد من دون الله ورضى بذلك .

يصدون : يعرضون .

قولاً بليغاً : قولاً يبلغ من نفوسهم غاية التأثير .

فيما شجر بينهم : فيما اختلفوا فيه .

حرجاً مما قضيت : ضيقاً من قضائك وحكمك .

ويسلموا تسليماً : يخضعوا لحكمك ويسلموا به .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف موقف المنافقين من التحاكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

٢ ـ أن ندرك حقيقة الإيمان ومقتضاه فى التسليم لكتاب الله وهدى الرسول ﷺ .

٣ ـ بيان خطر المنافقين على الإسلام ، وضرورة الحذر منهم مع الاستمرار فى نصحهم وإرشادهم .

٤ ـ أن نعرف واجب الدعاة إلى الله ، وكيف يمارسون الدعوة ، وكيف يتعاملون مع كل طوائف المجتمع .

المحتوى التربوى :

بعد أن قرر السياق فى الآيات السابقة ضرورة التحاكم إلى الله والرسول فى كل شىء وجعل هذه القاعدة شرطاً للإيمان وحداً للإسلام ، ونظاماً أساسياً للأمة المسلمة . يلتفت إلى الذين ينحرفون عن هذه القاعدة ؛ ثم يزعمون ـ بعد ذلك ـ أنهم مؤمنون ! وهم ينقضون شرط الإيمان وحد الإسلام ! إذ يريدون أن يتحاكموا إلى غير شريعة الله ، إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به .

ويقول صاحب الظلال:«يلتفت إليهم ليعجب من أمرهم ويستنكر .وليحذرهم ـ وأمثالهم ـ من إرادة الشيطان بهم الضلال ، ويصف حالهم حين يدعون إلى ما أنزل الله وإلى الرسول

فيصدون ، ويعتبر هذا الصدود نفاقاً ، كما اعتبر إرادتهم التحاكم إلى الطاغوت خروجاً من الإيمان ـ بل وعدم الدخول فيه ابتداء ـ كما يصف معاذيرهم الواهية الكاذبة فى اتباع هذه الخطة المستنكرة ، حين تجر عليهم الوبال والنكال ، ومع هذا كله فهو يوجه رسول الله ﷺ إلى النصح لهم وموعظتهم ، ويختم المقطع كله ببيان ما أراده الله ـ سبحانه ـ من إرسال الرسل ، وهو أن يطاعوا ، ثم بنص صريح جازم فى شرط الإيمان وحد الإسلام مرة أخرى ..

يقول صاحب المنار: «قال الأستاذ الإمام ـ محمد عبده : وقد ذكر المفسرون أسباباً متعددة لنزول هذه الآية : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ ﴾ يمنعنا اختلافها وتشتت رواياتها أن نجزم بواحدة معينة منها وإنما نسترشد بمجموعها إلى معرفة حال من أعرضوا عن حكم الرسول ﷺ وقد تقدم أن « الطاغوت » مصدر الطغيان وهو يصدق على كل من جاءت الروايات فى سبب نزول الآيات بالتحاكم إليهم (كما قرأت آنفاً) ، ومن قصد التحاكم إلى أى حاكم يريد أن يحكم له بالباطل ويهرب إليه من الحق ، فهو مؤمن بالطاغوت ولا كذلك الذى يتحاكم إلى من يظن أنه يحكم بالحق ، وكل من يتحاكم إليه من دون الله ورسوله ممن يحكم بغير ما أنزل الله على رسوله فهو راغب عن الحق إلى الباطل وذلك عين الطاغوت الذى هو بمعنى الطغيان الكثير ، ويدخل فى هذا ما يقع كثيراً من تحاكم الخصمين إلى الدجالين كالعرافين وأصحاب المندل والرمل ومدعى الكشف ويخرج المحكم فى الصلح وكل ما أذن به الشرع مما هو معروف » .

ونحن نجد فى هذه المجموعة من الآيات ، تحديداً كاملاً دقيقاً حاسماً لشرط الإيمان وحد الإسلام ، وتتجلى الشهادة الواضحة من الله سبحانه ـ بعدم إيمان الذين ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ ﴾ ، ولا يدخلون فى زمرة الإيمان والمؤمنين حتى يرجعوا إلى الرسول ﷺ ويحكموه فى شؤونهم وأقضيتهم ، ثم يطيعوا حكمه ، وينزلوا على قضائه ، طاعة ملؤها الرضا والتسليم ، لا عجزاً وقهراً ولكن طمأنينة وارتضاء .

وذلك لأن المقتضى الفطرى البدهى للإيمان ، أن يتحاكم الإنسان إلى ما آمن به ، وإلى من آمن به . فإذا زعم أنه آمن بالله وما أنزل ، وبالرسول وما جاء به . ثم دعى إلى هذا الذى آمن به ، ليتحاكم إلى أمره وشرعه ومنهجه ؛ كانت التلبية الكاملة هى البدهية الفطرية . فأما حين يصد ويأبى فهو يخالف البدهية الفطرية ، ويكشف عن النفاق ، وينبئ عن كذب الزعم الذى زعمه من الإيمان !

وينتقل السياق ليعرض مظهراً من مظاهر النفاق فى سلوكهم ؛ حين يقعون فى ورطة أو كارثة بسبب عدم تلبيتهم للدعوة إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ؛ أو بسبب ميلهم إلى التحاكم إلى الطاغوت ومعاذيرهم الواهية فيحلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً ! وهى دائماً دعوى كل ما من يحيدون عن الاحتكام إلى منهج الله وشريعته ، والله يعلم خبايا ضمائرهم ومكنونات

صدورهم . ومع ذلك يرغبهم الله فى العودة والتوبة والاستقامة والاطمئنان إلى كنف الله وكنف رسوله بعد كل ما بدا منهم من الميل إلى الاحتكام إلى الطاغوت ؛ ومن الصدود عن الرسول ﷺ حين يدعون إلى التحاكم إلى الله والرسول ، فالتوبة بابها مفتوح ، والعودة إلى الله لم يفت أوانها بعد ؛ واستغفارهم الله من الذنب ، واستغفار الرسول لهم ، فيه القبول ! ولكنه قبل هذا كله يقرر القاعدة الأساسية : وهى أن الله قد أرسل رسله ليطاعوا ـ بإذنه ـ لا ليخالف عن أمرهم . ولا ليكونوا مجرد وعاظ! ومجرد مرشدين !

وأخيراً يجىء البيان الحاسم الجازم : إذ يقسم الله ـ سبحانه ـ بذاته العلية ، أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله ﷺ فى أمره كله . ثم يمضى راضياً بحكمه ، مسلماً بقضائه ليس فى صدره حرج منه ، ولا فى نفسه تلجلج فى قبوله .

ويقول صاحب الظلال : « وإذا كان يكفى لإثبات « الإسلام » أن يتحاكم الناس إلى شريعة الله وحكم الرسول ﷺ فإنه لا يكفى فى «الإيمان » هذا ، ما لم يصحبه الرضا النفسى ، والقبول القلبى ، وإسلام القلب والجنان ، فى اطمئنان ! هذا هو الإسلام ، وهذا هو الإيمان ، فلتنظر نفس أين هى من الإسلام ؛ وأين هى من الإيمان ! قبل ادعاء الإسلام وادعاء الإيمان !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن من لم يطع الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين فقد خرج على منهج الله ، فإن كان خروجه صريحاً فهو الكفر ، وإن كان غير صريح فهو النفاق ، بمعنى أنه لا منجى من الكفر والنفاق إلا بطاعة الله ورسوله وأولى الأمر من المؤمنين أى باتباع المنهج .

٢ ـ أن الله تعالى أرسل رسله ليطاعوا بإذنه تعالى ، فمن عصاهم استحق عقاب الله تعالى واستغفر له الرسول ﷺ وتاب الله عليه ورحمه .

٣ ـ الدعوة إلى الله واجب على كل مسلم ، وأساليب الدعوة ووسائلها التى حددها الله تعالى هى الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتى هى أحسن .

٤ ـ أن الالتجاء إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا يمكن أن يؤدى بالناس إلى حرج أو مشقة أو ضلال عن الحق والخير والهدى ، فتلك مسلمات لدى المؤمنين بالله ورسوله المسلمين أمورهم لمنهجه ونظامه عن رضا وطاعة يحركها الحب والثقة .

٥ ـ لا إيمان لمن لم يحتكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ، مع الرضا والتسليم والخضوع لما أمر به الله ورسوله .

وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّـَٔاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

معانى الكلمات :

أن اقتلوا أنفسكم : أى عرضوا أنفسكم للقتل بالجهاد . **اخرجوا من دياركم** : هاجروا . **أشد تثبيتاً** : أقرب إلى ثبات الإيمان . **الصديقين** : الذين يصدقون أقوالهم بأفعالهم دائماً . **انفروا ثبات** : فاخرجوا للجهاد جماعات متفرقين .

ليبطئن : ليتثاقلن ويتخلفن عن الجهاد .

يشرون : يبيعون . **فى سبيل الله** : لإعلاء دينه . **نؤتيه** : نعطيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أن تكاليف الله فى مقدور العباد ، والإسلام منهج يسر فى حدود استطاعة كل البشر .

٢ ـ بيان أهمية وفضل طاعة الله ورسوله فى الدنيا والآخرة .

٣ ـ تصحيح مفهوم البلاء وبيان السلوك الصحيح للمسلم فى التعامل مع سنن الله وقدره .

المحتوى التربوى :

انتهت الآيات السابقة بتقرير قاعدة أساسية فى التصور الإسلامى ؛ وهى أنه لا إيمان قبل تحكيم رسول الله ﷺ وقبل الرضا والتسليم بقضائه ، وفى هذه الآيات يعود ليقول : إن هذا المنهج الذى يدعو إليه ؛ وهذه الشريعة التى يقال لهم : تحاكموا إليها ـ لا لسواها ـ وهذا القضاء الذى يتحتم عليهم قبوله والرضاء به .. إنه منهج ميسر ، وشريعة سمحة ، وقضاء رحيم إنه لا يكلفهم شيئاً فوق طاقتهم ؛ ولا يكلفهم عنتاً يشق عليهم ؛ ولا يكلفهم التضحية بعزيز عليهم .. فالله يعلم ضعف الإنسان ؛ ويرحم هذا الضعف . والله يعلم أنهم لو كلفوا تكاليف شاقة ، ما أداها إلا قليل منهم .. وهو لا يريد لهم العنت ، ولا يريد لهم أن يقعوا فى المعصية . ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق ، وما يدعو الكثيرين منهم للتقصير والمعصية . ولو أنهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التى كتبها الله عليهم ، واستمعوا للموعظة التى يعظهم الله بها ؛ لنالوا خيراً عظيماً فى الدنيا والآخرة ؛ ولأعانهم الله بالهدى ، كما يعين كل من يجاهد للهدى بالعزم والقصد والعمل والإرادة فى حدود الطاقة .

يقول صاحب الظلال : « إن هذا المنهج ميسرلينهض به كل ذى فطرة سوية إنه لا يحتاج إلى العزائم الخارقة الفائقة ، التى لا توجد عادة إلا فى قلة من البشر . وهذا الدين لم يجئ لهذه القلة القليلة . إنه جاء للناس جميعاً . والناس معادن ، وألوان ، وطبقات . من ناحية القدرة على النهوض بالتكاليف . وهذا الدين يُيسر لهم جميعاً أن يؤدوا الطاعات المطلوبة فيه ، وأن يكفوا عن المعاصى التى نهى عنها » .

وقتل النفس ، والخروج من الديار .. مثلان للتكاليف الشاقة ، التى لو كتبت عليهم ما فعلها إلا قليل منهم . وهى لم تكتب ، لأنه ليس المراد من التكاليف أن يعجز عنها عامة الناس وأن ينكل عنها عامة الناس . بل المراد أن يؤديها الجميع ، وأن يقدر عليها الجميع ، وأن يشمل موكب الإيمان كل النفوس السوية العادية ؛ وأن ينتظم المجتمع المسلم طبقات النفوس ، وطبقات الهمم، وطبقات الاستعدادات ؛ وأن ينميها جميعاً ويرقيها ، فى أثناء سير الموكب الحافل الشامل العريض !

قال ابن جريج : حدثنا المثنى إسحاق أبو الأزهر ، عن إسماعيل ، عن أبى إسحاق السبيعى قال : لما نزلت : ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ ... الآية : قال رجل : لو أمرنا لفعلنا ، والحمد لله الذى عافانا .. فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال : « إن من أمتى لرجالاً الإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسى » .

ويستأنف السياق انسيابه الشجى فى الترغيب ؛ واستجاشة القلوب ؛ والتلويح للأرواح بالمتاع الحبيب .. متاع الصحبة فى الآخرة للنبيين والصديقين والشهداء والصالحين لمن أطاع الله ورسوله ، ولقد كان هذا الأمر يشغل قلوب الصحابة وأرواحهم .. أمر الصحبة للرسول ﷺ فى الآخرة .. كما كانت فى الدنيا .. وقد ذاقوا طعم الصحبة فى الدنيا ! وإنه لأمر يشغل كل قلب ذاق محبة هذا الرسول الكريم . فعن ربيعة الأسلمى ، أنه قال : كنت أبيت عند رسول الله ﷺ فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لى : « سل » فقلت : يا رسول الله أسألك مرافقتك فى الجنة فقال : « أو غير ذلك ؟ » . قلت : هو ذاك قال : « فأعنّى على نفسك بكثرة السجود » .

وينتقل سياق الآيات هنا نقلة جديدة ليخوض معركة ميدانها النفس البشرية ضد الهواجس والوساوس وسوء التصور ورواسب الجاهلية والضعف البشرى ـ حتى ولو لم يكن صادراً عن نفاق أو انحراف . ليسوسها بمنهجه الربانى لتصل إلى مرتبة القوة والتناسق فى الصف المسلم .

وهنا فى هذا الدرس يرسم الخطة العامة للحركة الإسلامية داخل أرض المعركة من أخذ للحذر من العدو ، والاستنفار العام الجماعى فى جماعات نظامية ، ثم يسلط السياق الأضواء الكاشفة لدخائل النفوس ويرسم حقيقتها من التباطؤ والتلكؤ ؛ وعدم المصارحة ليمسكوا العصا من الوسط كما يقولون ! وتصورهم للربح والخسارة بمنطق المنافقين وضعاف النفوس

والتخلف المقيت عن المعركة .. فإن أصابت المجاهدين محنة ، وابتلوا الابتلاء المنتظر فى بعض الأحايين ـ فرح المخلفون ؛ وحسبوا أن فرارهم من الجهاد ، ونجاتهم من الابتلاء نعمة ! فأما إذا كانت الأخرى .. فانتصر المجاهدون ؛ الذين خرجوا مستعدين لقبول كل ما يأتيهم به الله .. ونالهم فضل من الله بالنصر والغنيمة .. ندم المتخلفون أن لم يكونوا شركاء فى معركة رابحة ! رابحة بحسب مفهومهم القريب والقاصر للربح والخسارة !

يقول صاحب الظلال : « إن المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية . ولكنه إذا ندب للجهاد خرج ـ غير متثاقل ـ خرج يسأل الله إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ؛ وكلاهما فضل من الله ؛ وكلاهما فوز عظيم فيقسم له الله الشهادة ، فإذا هو راض بما قسم الله ؛ أو فرح بمقام الشهادة عند الله . ويقسم له الله الغنيمة والإياب ، فيشكر الله على فضله ، ويفرح بنصر الله . لا لمجرد النجاة !

وأخيراً يمضى السياق يحاول أن يرفع ويطلق هؤلاء المبطئين المثقلين بالطين وأن يوقظ فى حسهم التطلع إلى ما هو خير وأبقى .. الآخرة .. وأن يدفعهم إلى بيع الدنيا وشراء الآخرة . ويعدهم على ذلك فضل الله فى الحالتين ، وإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن الله تعالى ـ لرحمته بعباده وعلمه بضعفهم ـ لم يكلفهم بما يشق عليهم ولا بما يفوق طاقتهم وقدراتهم .

٢ ـ أن مقتضى الإيمان الصحيح الراسخ أن الله تعالى لو كلَّف عباده بما يشق عليهم أن يستجيبوا ، وأولئك قلة من المؤمنين الذين لو كلفوا بقتل أنفسهم لفعلوا ولكن الله تعالى لم يكلفهم بذلك .

٣ ـ أن المؤمن يجب أن يقبل على أداء ما كلفه الله به ، موقناً أن ذلك فى حدود استطاعته ، وأن فيه الخير بإذن الله تعالى .

٤ ـ أن طاعة الله ورسوله تلحق الطائعين بأعلى الدرجات ، وأرفعها عند الله ؛ إذ يتشرف الطائعون بمعية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين فى الجنة ، وهذه هى أحسن الرفقة .

٥ ـ المؤمن لا يتمنى البلاء بل يسأل الله العافية ، وإذا ندب للجهاد خرج ـ غير متثاقل سائلاً الله عز وجل : النصر أو الشهادة وكلاهما عنده سواء .

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ
ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ
نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ
ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ
كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا
قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ
حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟
هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن
سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾

٩٠

معانى الكلمات :

القرية : مكة . **من لدنك** : من عندك .

ولياً : معيناً . **كيد الشيطان**:احتياله للفساد.

كفوا أيديكم : اتركوا القتال . **أجل** : ميعاد . **فتيلاً** : الخيط يكون فى شق نواة التمر . **بروج** : قصور وحصون . **مشيدة** : محكمة أو مطولة ومرتفعة . **يفقهون** : يفهمون .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الغاية والهدف من الجهاد فى سبيل الله وأحكامه وآدابه .

٢ ـ الإخبار بصفات المنافقين عند دعوتهم للجهاد فى سبيل الله ليحذرهم المؤمنون .

٣ ـ بيان عاقبة الحماسة وفضيلة التؤدة والانضباط بأوامر الله وتوجيهات النبى ﷺ .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة سعى السياق لاستنهاض الهمم ورفعها إلى الآفاق السامية ، فعلقها بالرجاء فى فضل الله العظيم فى كلا الحالين : النصر أو الاستشهاد ، وهوّن عليها ما تخشاه من القتل ، وصوب تصورها للغنيمة التى ترجوها ، وفى هذه الآيات يلتفت السياق إلى المسلمين من الحكاية عن أولئك المبطئين إلى استجاشة مروءة النفوس وحساسية القلوب ؛ تجاه المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ؛ الذين كانوا يقاسون فى مكة ما يقاسون على أيدى المشركين غير قادرين على الهجرة إلى دار الإسلام والفرار بدينهم وعقيدتهم ؛ وهم يتطلعون إلى الخلاص ، ويدعون الله أن يجعل لهم مخرجاً من دار الظلم والعدوان ، يلتفت هذه الالتفاتة ليوحى إليهم . بسمو القصد ، وشرف الغاية ، ونبل الهدف فى هذه الدعوة ، وهذا القتال الذى يدعوهم إليه ، غير متثاقلين ولا مبطئين .

ثم لفتة نفسية أخرى ، لاستنهاض الهمم واستجاشة العزائم ، وإنارة الطريق لوضوح الرؤية، وتحديد الغاية والهدف التى يعمل لها كل فريق . فالذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله ؛ لتحقيق

منهجه وإقرار شريعته ، وإقامة العدل بين الناس باسم الله ، لا تحت أى عنوان آخر اعترافًا بأن الله وحده هو الإله ومن ثم فهو الحاكم ، والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت لتحقيق مناهج شتى ـ غير منهج الله ـ وإقرار شرائع وقيم شتى غير شرائع وقيم الله ؛ ويقف الذين آمنو مستندين إلى ولاية الله وحمايته ورعايته ، ويقف الذين كفروا مستندين إلى ولاية الشيطان بشتى راياتهم ، وشتى مناهجهم وشتى شرائعهم وطرائقهم فكلهم أولياء الشيطان ؛ لذا يأمر الله الذين آمنوا أن يقاتلوا أولياء الشيطان ؛ ولا يخشوا مكرهم ولا مكر الشيطان : ﴿ فَقَـٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ .

يقول صاحب الظلال : « وهكذا يقف المسلمون على أرض صلبة ، مسندين ظهورهم إلى ركن شديد . مقتنعى الوجدان بأنهم يخوضون معركة لله ، ليس لأنفسهم منها نصيب ، ولا لذواتهم منها حظ . وليست لقومهم ، ولا لجنسهم ، ولا لقرابتهم وعشيرتهم منها شىء .. إنما هى لله وحده ، ولمنهجه وشريعته . وأنهم يواجهون قوماً أهل باطل ؛ يقاتلون لتغليب الباطل على الحق ، .. ولتغليب ظلم البشر على عدل الله ، كذلك يخوضون المعركة وهم يوقنون أن الله وليهم فيها . وأنهم يواجهون قوماً ، الشيطان وليهم فهم إذن ضعاف .. إن كيد الشيطان كان ضعيفاً .

ومن هنا يتقرر مصير المعركة فى حس المؤمنين ، وتتحدد نهايتها . قبل أن يدخلوها . وسواء بعد ذلك استشهد المؤمن فى المعركة ـ فهو واثق من النتيجة ـ أم بقى حتى غلب ، ورأى بعينيه النصر ؛ فهو واثق من الأجر العظيم .

ثم يتعجب الله فى سياق الآيات بعد هذا من أمر طائفة أو أكثر من المسلمين قيل: إن بعضهم من المهاجرين الذين كانت تشتد بهم الحماسة ـ وهم فى مكة يلقون الأذى والاضطهاد ـ ليؤذن لهم فى قتال المشركين . حيث لم يكن مأذوناً لهم ـ بعد ـ فى قتال ، للحكمة التى يعلمها الله ، ... فلما كتب عليهم القتال ، بعد أن قامت للإسلام دولة فى المدينة ، وعلم الله أن فى هذا لإذن خيراً لهم وللبشرية .. إذ هم ـ كما يصورهم القرآن : ﴿ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ﴾ ممن إذا أصابتهم الحسنة قالوا : هذه من عند الله . وإن أصابتهم السيئة قالوا للرسول ﷺ : ﴿ هَـٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ﴾ . وممن يقولون : طاعة حتى إذا خرجوا من عندك الرسول ﷺ بيَّت طائفة منهم غير الذى تقول ، وممن إذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ..

يقول صاحب الظلال : « إن أشد الناس حماساً واندفاعاً وتهوراً ، قد يكونون هم أشد الناس جزعاً وانهياراً وهزيمة عندما يجد الجد ، وتقع الواقعة .. بل إن هذه قد تكون القاعدة ! ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالباً ما تكون منبعثة عن عدم التقدير لحقيقة التكاليف . لا عن شجاعة واحتمال وإصرار . كما أنها قد تكون منبعثة عن قلة الاحتمال . قلة احتمال الضيق

والأذى والهزيمة ، فتدفعهم قلة الاحتمال ، إلى طلب الحركة والدفع والانتصار بأى شكل . دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع والانتصار .. حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا ، وأشق مما تصوروا ، فكانوا فى أول الصف جزعاً ونكولاً وانهياراً .. على حين يثبت أولئك الذين كانوا يمسكون أنفسهم ، ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت ؛ ويعدون للأمر عدته ، ويعرفون حقيقة تكاليف الحركة، ومدى احتمال النفوس لهذه التكاليف فيصبرون ويتمهلون ويعدون للأمر عدته ، والمتهورون المندفعون المتحمسون يحسبونهم إذ ذاك ضعافاً ، ولا يعجبهم تمهلهم ووزنهم للأمور ! وفى المعركة يتبين أى الفريقين أكثر احتمالاً ؛ وأى الفريقين أبعد نظراً كذلك !

يقول صاحب الظلال : « إن الله هو الفاعل الأول ، لكل ما يقع فى الكون ، وما يقع للناس منهم ، فالناس يملكون أن يتجهوا وأن يحاولوا . ولكن تحقق الفعل ـ أى فعل لا يكون إلا بإرادة من الله وقدر فنسبة إنشاء الحسنة أو إنشاء السيئة ، وإيقاعها بهم ؛ للرسول ﷺ وهو بشر منهم مخلوق مثلهم ـ نسبة غير حقيقية » .

إن الإنسان قد يتجه ويحاول تحقيق الخير ؛ بالوسائل التى أرشد الله إلى أنها تحقق الخير . ولكن تحقيق الخير فعلاً يتم بإرادة الله وقدره . لأنه ليست هناك قدرة ـ غير قدرة الله ـ تنشئ الأشياء والأحداث وتحقق ما يقع فى هذا الكون من وقائع . وإذن يكون تحقيق الخير ـ بوسائله التى اتخذها الإنسان وباتجاه الإنسان وجهده ـ عملاً من أعمال القدرة الإلهية . وكذلك عند الاتجاه إلى تحقيق السوء .. لأنه ليس هناك قدرة منشئة للأشياء فى هذا الكون غير قوة الله .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ إن من سنة الله تعالى مع خلقه أن تكون حياتهم الدنيا مجالاً للكيد والصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر ، وأن المؤمنين على الدوام لهم أعداء يكيدون ويتربصون بهم الدوائر .

٢ ـ أن من الحذر من العدو أن يواجه بالأسلوب والخطة والحشد والتسلح الملائم لظروف العدو ، ولما يملكه هو من وسائل وآلات حربية .

٣ ـ أن صفوف المسلمين لا تخلو غالباً من المنافقين الذين لا يحبون أن ينفروا فى الحرب متعللين بأوهى الأسباب مثبطين لغيرهم عن النفير فى سبيل الله .

٤ ـ أن قتال الشياطين وأوليائهم واجب ؛ لأن الله تعالى أمر به ، والنصر عليهم سهل وميسور للذين آمنوا وصحت نياتهم ، ووضحت غايتهم ونبل هدفهم للجهاد فى سبيل الله .

مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ
عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ ۖ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ
عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ
مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا
﴿٨١﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟
فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ
أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى
ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ
ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾
فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ
عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا
وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ
نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟
بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾
٩١

معانى الكلمات :

تولى : أعرض . **حفيظاً** : رقيباً وحافظاً ومسيطراً . **برزوا** : خرجوا . **بيت طائفة** : دبرت جماعة الأمر ليلاً . **يتدبرون**: يتأملون **أزاعوا به** : أشاعوه ونشروه . **يستنبطونه** : يستخرجون تدبيره . **حرض المؤمنين** : حثهم . **أشد تنكيلاً** : أشد تعذيباً وعقاباً .

شفاعة : طلب المعاونة والسعى فى مصالح الناس . **كفل** : نصيب وحظ . **مقيتاً** : مقتدراً أو حفيظاً . **حسيباً** : محاسباً ومجازياً ، أو شهيداً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية طاعة الله ورسوله وأثرها فى التمكين للأمة .

٢ ـ بيان فضل تدبر القرآن الكريم وأثره فى زيادة الإيمان .

٣ ـ أن نعرف أخلاق الصف المسلم وقت السلم والحرب .

٤ ـ بيان أهمية إفشاء السلام فى المجتمع وأثره فى تدعيم المودة والحب .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يبين الله وظيفة الرسول ﷺ وعمله وموقف الناس منه ، وموقفه من الناس ويرد الأمر كله إلى الله فى النهاية : فوظيفة الرسول هى أداء الرسالة . لا إحداث الخير ولا إحداث السوء . فهذا من أمر الله والله شهيد على أنه أرسل النبى ﷺ لأداء هذه الوظيفة ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ . وأمر الناس مع الرسول ﷺ أن من أطاعه فقد أطاع الله ، ومن تولى معرضاً مكذباً فأمره إلى الله من ناحية حسابه وجزائه ولم يرسل الرسول ﷺ ليجبره على الهدى ، ويكرهه على الدين ، وليس موكلاً بحفظه من العصيان والضلال ، فهذا ليس داخلاً فى وظيفة الرسول ؛ ولا داخلاً فى قدرة الرسول .

ويقول صاحب الظلال : « بهذا البيان يصحح تصورهم عن حقيقة ما يقع لهم .. فكله لا ينشأ ولا يتحقق إلا بإرادة الله وقدره ، وما يصيبهم من حسنة أو سيئة ـ فهو من عند الله ، لأنه

بسبب منهجه وهدايته ، وما يصيبهم من سيئة حقيقية ـ فى ميزان الله ـ فهو من عند أنفسهم ، لأنه بسبب تنكبهم عن منهج الله والإعراض عن هدايته .

بعد ذلك يحكى السياق عن حال طائفة أخرى ـ فى الصف المسلم ـ لعلها طائفة المنافقين يذكر عنها فعلاً جديداً ، وينفر منه فهذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف .. قالوا : « طاعة » قالوها هكذا جامعة شاملة طاعة مطلقة لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء ! ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ﷺ حتى تبيت طائفة منهم غير الذى تقول ، وتروح فيما بينها تتآمر على عدم التنفيذ ؛ وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكاليف .

والله ـ سبحانه ـ يطمئن النبى ﷺ والمخلصين فى الصف يطمئنهم بأن عينه على هذه الطائفة التى تبيت وتمكر . لذا وجه الله عز وجل نبيه للإعراض والتغاضى عما يبدر منهم ، ويأخذهم بظاهرهم لا بحقيقة نواياهم وبعد ذلك وقبله كفى بالله وكيلاً فلا يضار من كان الله وكيله ، ولا يناله تآمر ولا مكيدة .

ويأتى التوجيه والإكرام للإنسان لاحترام إدراكه وشخصيته ودعوتها لتدبر القرآن وملاحظة التناسق المطلق الشامل الكامل للقرآن وهى الظاهرة التى لا يخطئها من يتدبر هذا القرآن أبداً ومن ثم فإن كل أحد ، وكل جيل ، مخاطب بهذه الآية ، ومستطيع ـ عند التدبر وفق منهج مستقيم ـ أن يدرك من هذه الظاهرة ـ ظاهرة عدم الاختلاف ، أو ظاهرة التناسق ـ ما تهيئه له قدرته وثقافته وتجربته وتقواه .

ويرسم السياق صورة طائفة أخرى ، وهى جماعة فى المعسكر الإسلامى ، لم تألف نفوسهم النظام ؛ ولم يدركوا قيمة الإشاعة فى خلخلة المعسكر ؛ وفى النتائج التى تترتب عليها ، وقد تكون قاصمة ؛ لأنهم لم يرتفعوا إلى مستوى الأحداث ؛ ولم يدركوا جدية الموقف ؛ وأن كلمة عابرة وفلتة لسان ، قد تجر من العواقب على الشخص ذاته ، وعلى جماعته كلها ما لا يخطر له ببال ؛ وما لا يتدارك بعد وقوعه بحال !

ويقول صاحب الظلال : فمهمة الجندى المسلم فى الجيش المسلم ، الذى يقوده أمير مؤمن ـ بشرط الإيمان ذاك وحدّه ـ حين يبلغ إلى أذنيه خبر ، أن يسارع فيخبر به نبيه أو أميره . لا أن ينقله ويذيعه بين زملائه ؛ أو بين من لا شأن لهم به لأن قيادته المؤمنة هى التى تملك استنباط الحقيقة ، كما تملك تقدير المصلحة فى إذاعة الخبر ـ حتى بعد ثبوته ـ أو عدم إذاعته .

وحين يصل السياق إلى هذا الحد من تقويم عيوب الصف ؛ التى تؤثر فى موقفه فى الجهاد وفى الحياة عندئذ ينتهى إلى قمة التحضيض على القتال ، الذى لا يقعد الفرد عنه تبطئة ولا تخذيل ،

ولا خلل فى الصف ، ولا وعورة فى الطريق . حيث يوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ بأنه يقاتل ـ ولو كان وحيداً ـ فإنه لا يحمل فى الجهاد إلا تبعة شخصه ﷺ وفى الوقت ذاته يحرض المؤمنين على القتال .. وكذلك يوحى إلى النفوس بالطمأنينة ورجاء النصر : فالله هو الذى يتولى المعركة . والله أشد بأساً وأشد تنكيلاً .

ويقرر السياق قاعدة عامة فى الشفاعة وهى تشمل التوجيه والنصح والتعاون ؛ فالذى يشجع ويحرض ويعاون على القتال فى سبيل الله ، يكون له نصيب من أجر هذه الدعوة وآثارها ، والذى يبطئ ويثبط تكون له تبعة فيها وفى آثارها .. « وكلمة ﴿ كِفْلٌ ﴾ توحى بأنه متكفل بجرائرها .

ثم يستطرد السياق بعد ذكر الشفاعة إلى الأمر برد التحية بخير منها أو بمثلها . والتحية فى المجتمع علاقة من العلاقات التى تدور بها عجلة الحياة فى يسر ، إذا اتبع الأدب الواجب فيها ، وهذا التشريع حرص من المولى عز وجل على توثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة .. وإفشاء السلام ، والرد على التحية بأحسن منها ، من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها ، وقد سئل رسول الله ﷺ أى العمل خير ؟ قال : « تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ فإنه لا يُطاع لذاته وإنما يُطاع لذات الله عز وجل ، كما ثبت عنه فى الصحيحين قوله ﷺ : « من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ... الحديث » .

٢ ـ وجوب تدبر القرآن فإنه سبيل زيادة الإيمان .

٣ ـ وجوب التثبت قبل إذاعة أى حديث أو نقله عن الآخرين لما ورد فى الصحيح : « من حدَّث بحديث ، وهو يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين » وفى سنن أبى داود : « بئس مطيّة الرجل زعموا » أى الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبّر .

٤ ـ من يسع فى أمر يترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك الخير ، وقد ثبت فى الصحيح عنه ﷺ : أنه قال : « اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لسان نبيِّه ما شاء »

٥ ـ تأكيد سنة التحية « إلقاء السلام » ووجوب ردّها بمثلها أو بأحسن منها .

سورة النساء
اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ
وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ
فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا ۚ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ
أَضَلَّ اللَّهُ ۗ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا لَوْ
تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ
حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ
حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٨٩﴾
إِلَّا الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ
حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ
وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ۖ كُلَّ
مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا ۚ فَإِنْ لَمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ
السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ
ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُولَٰئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُبِينًا ﴿٩١﴾
٩٢

معانى الكلمات :

لا ريب فيه : لا شك فيه . **أركسهم** : نكَّسهم . **سواء** : مستوين . **ميثاق**: عهد . **حصرت صدورهم** : ضاقت وانقبضت . **أركسوا فيها** : تقلبوا فى الفتنة أشنع تقلب **ثقفتموهم** : وجدتموهم ، أو تمكنتم منهم . **سلطانا مبيناً** : حجة واضحة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نبين صفات المنافقين وكيفية التعامل معهم .

٢ ـ أن نعلم أثر المنافقين فى خلخلة الصف المسلم ونحذر منهم .

٣ ـ أن نعرف أحكام قتال المنافقين والمشركين .

٤ ـ أن نعرف شروط الصلح مع غير المسلمين كفاراً ومنافقين .

المحتوى التربوى :

يبدأ هذا الدرس بقاعدة التصور الإسلامى الأساسية .. التوحيد وإفراد الله ـ سبحانه وتعالى ـ بالألوهية ؛ ثم يبنى عليها أحكاماً شتى فى معاملة المجتمع المسلم مع المعسكرات المختلفة ؛ ويقول صاحب الظلال ـ رحمه الله : « إنه من توحيد الله ـ سبحانه ـ وإفراده بالألوهية تبدأ خطوات المنهج الربانى ـ سواء فى تربية النفوس أم فى إقامة المجتمع المسلم ، ووضع شرائعه وتنظيمه ، والاعتقاد فى الآخرة ، وجمع الله الواحد لعباده ، ليحاسبهم هناك على ما أتاح لهم فى الدنيا من فرص العمل والابتلاء ، تبدأ خطوات هذا المنهج فى تربية النفوس ، وإثارة الحساسية فيها تجاه التشريعات والتوجيهات ؛ وتجاه كل حركة من حركاتها فى الحياة ، فهو الابتلاء فى الصغيرة والكبيرة فى الدنيا ؛ والحساب على الصغيرة والكبيرة فى الآخرة ، وهذا هو الضمان الأوثق لنفاذ الشرائع والأنظمة ؛ لأنه كامن هنا فى أعماق النفس ، حارس عليها ، سهران حيث يغفو الرقباء ويغفل السلطان ! هذا حديث الله ـ سبحانه ـ وهذا وعده : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ .

بعد بيان هذا المنهج التربوى للجماعة المسلمة ؛ يستنكر حالة من التميع فى مواجهة النفاق والمنافقين ؛ وقلة الحسم فى موضع الحسم فى معاملة الجماعة المسلمة لهم ؛ وانقسام هذه الجماعة فئتين فى أمر طائفة من المنافقين من خارج المدينة ، فيحذر من منافحة المسلمين عن المنافقين لمجرد نطقهم الشهادة بألسنتهم ، بينما هم يظاهرون أعداء المسلمين ، من أجل هذا التميع فى فهم فئة من المسلمين ، ومن أجل ذلك الاختلاف فى شأن المنافقين فى الصف المسلم كان هذا الاستنكار الشديد ، ثم تبعه الإيضاح الإلهى لحقيقة موقف هؤلاء المنافقين . فالله عز وجل أوقعهم فيما هم فيه بسبب سوء نيتهم وسوء عملهم ؟ وهى شهادة من الله حاسمة فى أمرهم ،بأنهم واقعون فى السوء بما أضمروا وبما عملوا من سوء .

ثم يخطو السياق خطوة فى كشف موقف المنافقين ، إنهم لم يضلوا أنفسهم فحسب ؛ ولم يستحقوا أن يوقعهم الله فى الضلالة بسعيهم ونيتهم فحسب ، إنما هم كذلك يبتغون إضلال المؤمنين ، ومن ثم فلا ولاية بين المسلمين فى دار الإسلام ، وبين غيرهم فى دار الحرب ، ودار الحرب هى يومئذ مكة موطن المهاجرين الأول ، لا ولاية حتى يهاجر أولئك الذين يتكلمون بكلمة الإسلام ؛ وينضموا إلى المجتمع المسلم . حيث تكون هجرتهم لله وفى سبيل الله، من أجل عقيدتهم ، لا من أجل أى هدف آخر ؛ ولإقامة المجتمع المسلم الذى يعيش بالمنهج الإسلامى لا لأى غرض آخر ، بهذه النصاعة ، وبهذا الحسم .

فإن هم فعلوا . فتركوا أهلهم ووطنهم ومصالحهم فى دار الحرب ، وهاجروا إلى الإسلام فهم أعضاء فى المجتمع المسلم ، وإن لم يفعلوا وأبوا الهجرة ، فلا عبرة بكلمات تقال فتكذبها الأفعال . فإن الإسلام لا يتسامح فى وصف جماعة من المنافقين بأنهم مؤمنون ؛ لأنهم شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله . ثم بقوا فى دار الكفر ، يناصرون أعداء المسلمين !

ومن هنا قال تعالى محرماً موالاتهم إلى أن يقاتلوا فقال : ﴿ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ تعولون عليهم فى نصرتكم على إخوانهم فى الكفر حتى يهاجروا ؛ لأن الهجرة تقطع صلاتهم بدار الكفر وإن تولوا عن هذا الإيمان الصحيح إلى النفاق والكفر ، فأعلنوا الحرب عليهم ؛ لأنهم بارتكاسهم لا خير فيهم ولا يعول عليهم ، واستثنى صنفين من المنافقين المذكورين ، فلا يأخذونهم أسرى ولا يقاتلونهم ، الصنف الأول الذين ذكرهم تعالى بقوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ ﴾ أى يلجؤون ﴿ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ﴾ ، والصنف الثانى قوم ضاقت صدورهم بقتالكم ، وقتال قومهم فهؤلاء الذين لم يستسيغوا قتالكم ولا قتال قومهم إن اعتزلوكم ، فلم يقاتلوكم فلا تأخذوهم ولا تقتلوهم واصبروا عليهم ، إذ لو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم،هذا الصنف هو المعنى بقوله تعالى : ﴿ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ ﴾ فما دام الله تعالى قد كفهم عنكم فكفوا أنتم عنهم .

هذا وهناك صنف آخر ذكر تعالى حكم معاملته فى الآية الأخيرة من هذا المقطع ، وهى قوله تعالى: ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ ﴾ غير الصنفين السابقين ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ ﴾ إذا كانوا معكم عبدوا الله وحده ، وإذا كانوا مع قومهم عبدوا الأوثان لمجرد دعوة يدعونها يلبون فيرتدون إلى الشرك ، فهؤلاء إن لم يعتزلوا قتالكم ويلقوا إليكم السلام ، وهو الإذعان والانقياد لكم ، ويكفوا أيديهم فعلاً عن قتالكم ﴿ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾ أى حجة واضحة على جواز أخذهم وقتلهم حيثما تمكنتم منهم ، وعلى أى حال . هذا ما دلت عليه الآيات الخمس السابقة مع العلم أن الكف عن قتال المشركين قد نسخ بآيات براءة إلا أن لإمام المسلمين أن يأخذ بهذا النظام عند الحاجة إليه ، فإنه نظام ربانى ما أخذ به أحد وخاب أو خسر ، ولكن خارج جزيرة العرب إذ لا ينبغى أن يجتمع فيها دينان .

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ﴾ : «وهكذا يلمس المنهج التربوى الحكيم نفوس المسلمين المتحمسين ، الذين قد لا يرضون هذا الموقف من هذا الفريق . يلمسه بما فى هذا الموقف من فضل الله وتدبيره ؛ ومن كف لجانب من العداء والأذى كان سيضاعف العبء على عاتق المسلمين،ويعلمهم أن يأخذوا الخير الذى يعرض فلا يرفضوه، ويجتنبوا الشر الذى يأخذ طريقه بعيداً عنهم ، فلا يناوشوه . طالما أن ليس فى هذا كله تفريط فى شىء من دينهم ، ولا تمييع لشىء من عقيدتهم ؛ ولا رضا بالدنية فى طلب السلم الرخيصة ! لقد نهاهم عن السلم الرخيصة ؛ لأنه ليس الكف عن القتال بأى ثمن هو غاية الإسلام .. إنما غاية الإسلام السلم التى لا تتحيف حقاً من حقوق الدعوة ، ولا من حقوق المسلمين ، لا حقوق أشخاصهم وذواتهم ؛ ولكن حقوق هذا المنهج الذى يحملونه ويسمون به مسلمين » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن التعامل مع المنافقين يجب أن يكون على ظاهر أمرهم ، لا على حقيقة ما يؤمنون به ، لأن ذلك لا يعلمه إلا الله تبارك وتعالى ؛ لأن القاعدة العامة فى التعامل مع المنافقين هى : « لنا الظاهر والله يتولى السرائر » .

٢ ـ أن المسلم يجب أن يحترم العهد والميثاق الذى بينه وبين غيره من الناس ، ولا يجوز له نقض عهد إلا إذا أيقن أن عدوه ناقضه ، وأن من دخل فى عهد معاهد للمسلمين وجب على المسلمين رعاية عهده واحترام ميثاقه .

٣ ـ أن من واجب الدعاة إلى الله أن يحذروا الناس من الكفار والمنافقين ، ومن مكرهم، وفجورهم ، ومحاولاتهم المستميتة فى أن يجرّوا المؤمنين إلى الكفر والنفاق ؛ حتى يصبحوا مثلهم كراهية منهم للإيمان والمؤمنين ، وحباً فى تحدى الله تعالى ورسوله ومنهجه .

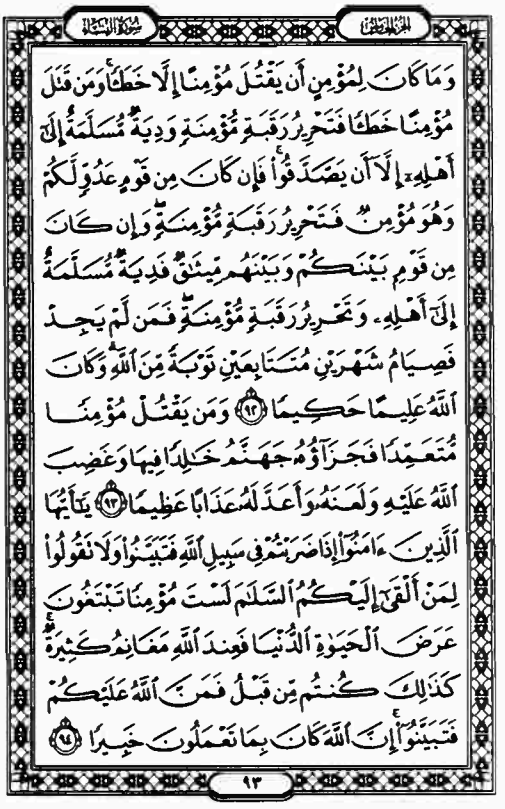
وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ
مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ
مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ
إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ
فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا
مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟
لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ
عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ
كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ
فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾
٩٣

معانى الكلمات :

تحرير رقبة : جعل الإنسان حراً . **دية** : ما يُعطى من المال عوضاً عن دم القتيل إلى وليه . **مسلمة إلى أهله** : مدفوعة ومؤداة إلى أهل القتيل . **ميثاق**:عهد وذمة . **فتبينوا** : تحققوا وتثبتوا . **عرض الحياة الدنيا**: الغنيمة وهى متاع زائل .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان شكل علاقة المسلمين بعضهم مع بعض فى كل مكان .

٢ ـ معرفة أحكام القتل الخطأ والعمد .

٣ ـ بيان حرمة دم المسلم وعظم حرمة ماله ودمه عند الله .

٤ ـ بيان الحكمة من خلود قاتل المؤمن عمداً فى النار .

المحتوى التربوى :

فى الآيات السابقة تناول السياق علاقات المسلمين مع المعسكرات الأخرى ، فأما علاقات المسلمين بعضهم مع بعض،مهما اختلفت الديار ـ فلا قتل ولا قتال..لا قتل إلا فى حد أو قصاص ، **ويقول صاحب الظلال** : « فإنه لا يوجد سبب يبلغ من ضخامته أن يفوق ما بين المسلم والمسلم من وشيجة العقيدة . ومن ثم لا يقتل المسلم المسلم أبداً ، وقد ربطت بينهما هذه الرابطة الوثيقة ، اللهم إلا أن يكون ذلك خطأ .. وللقتل الخطأ توضع التشريعات والأحكام ، فأما القتل العمد فلا كفارة له ، لأنه وراء الحسبان ! ووراء حدود الإسلام !

ولهذه الأحكام أربع حالات : ثلاث منها من حالات القتل الخطأ ـ وهو الأمر المحتمل وقوعه بين المسلمين فى دار الإسلام ، أو فى ديار مختلفة بين شتى الأقوام ـ والحالة الرابعة حالة القتل العمد ، وهى التى يستبعد السياق القرآنى وقوعها ابتداء ، ومن ثم يبدأ حديثه عن أحكام القتل الخطأ .

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ .. فهذا هو الاحتمال الوحيد فى الحس الإسلامى ، فإن وجود المسلم إلى جوار المسلم مسألة كبيرة جداً ، ونعمة عظيمة جداً ، ومن العسير تصور أن يقدم مسلم على إزالة هذه النعمة عن نفسه ؛ والإقدام على هذه الكبيرة عن

عمد وقصد . فأما إذا وقع القتل خطأ فهناك تلك الحالات الثلاث ، التى يبين السياق أحكامها هنا :

الحالة الأولى : أن يقع القتل على مؤمن أهله مؤمنون فى دار الإسلام ، ويجب فى هذه الحالة تحرير رقبة مؤمنة ، ودية تسلم إلى أهله ، فأما تحرير الرقبة المؤمنة ، فهو تعويض للمجتمع المسلم عن قتل نفس مؤمنة باستحياء نفس مؤمنة ، وأما الدية فتسكين لثائرة النفوس ، وشراء لخواطر المفجوعين ، وتعويض لهم عن بعض ما فقدوا من نفع المقتول ، ومع هذا يلوح الإسلام لأهل القتيل بالعفو ، لأنه أقرب إلى جو التعاطف والتسامح فى المجتمع المسلم .

والحالة الثانية : أن يقع القتل على مؤمن وأهله محاربون للإسلام فى دار الحرب ، وفى هذه الحالة يجب تحرير رقبة مؤمنة لتعويض النفس المؤمنة التى قتلت ، وفقدها الإسلام . ولكن لا يجوز أداء دية لقومه المحاربين ، يستعينون بها على قتال المسلمين ! ولا مكان هنا لاسترضاء أهل القتيل وكسب مودتهم ، فهم محاربون ، وهم عدو للمسلمين .

والحالة الثالثة : أن يقع القتل على مؤمن قومه معاهدون ـ عهد هدنة أو عهد ذمة ـ ولم ينص على كون المقتول مؤمناً فى هذه الحالة . مما جعل بعض المفسرين يرى النص على إطلاقه . ويرى الحكم بتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله ـ المعاهدين ـ ولو لم يكن مؤمناً . لأن عهدهم مع المؤمنين يجعل دماءهم مصونة كدماء المسلمين .

ويقول صاحب الظلال : « ولكن الذى يظهر لنا أن الكلام ابتداء منصب على قتل المؤمن . ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ﴾ . ثم بيان للحالات المتنوعة التى يكون فيها القتيل مؤمناً : وإذا كان قد نص فى الحالة الثانية فقال : ﴿ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ فقد كان هذا الاحتراز مرة أخرى بسبب ملابسة أنه من قوم عدو ، ويؤيد هذا الفهم النص على تحرير رقبة مؤمنة فى هذه الحالة الثالثة ، مما يوحى بأن القتيل مؤمن فأعتقت رقبة مؤمنة تعويضاً عنه ، وإلا لكفى عتق رقبة إطلاقاً دون شرط الإيمان ذلك القتل الخطأ .

فأما القتل العمد ، فهو الكبيرة التى لا ترتكب مع إيمان ؛ والتى لا تكفر عنها دية ولا عتق رقبة ؛ وإنما يوكل جزاؤها إلى عذاب الله ؛ لأنها جريمة قتل لا لنفس فحسب ـ بغير حق ـ ولكنها كذلك جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة ، التى أنشأها الله بين المسلم والمسلم . إنها تنكر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها .

ومن ثم قرنت بالشرك فى مواضع كثيرة ؛ واتجه بعضهم ـ ومنهم ابن عباس ـ إلى أنه لا توبة منها ، ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ .. فرجاً للقاتل التائب بالمغفرة ، وفسر الخلود بأنه الدهر الطويل .

يقول صاحب الأساس : « ولقاتل العمد أحكام فى الدنيا ، وأحكام فى الآخرة ، فأما فى الدنيا فتسليط أولياء المقتول عليه ، وهم مخيرون بين أن يقتلوا أو يعفوا ،أو يأخذوا دية مغلظة أثلاثا ،

ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة ، وأربعون خَلِفَة ، واختلف الأئمة هل تجب عليه كفارة عتق رقبة، أو صيام شهرين متتابعين أو إطعام ؟ فالشافعى وأصحابه وطائفة من العلماء يقولون : نعم يجب عليه ، وقال الإمام أحمد وأصحابه وآخرون : قتل العمد أعظم من أن يكفر ، فلا كفارة فيه » .

واحتراساً من وقوع القتل ولو كان خطأ ؛ وتطهيراً لقلوب المجاهدين حتى ما يكون فيها شىء إلا الله ، وفى سبيل الله يأمر الله المسلمين إذا خرجوا غزاة ، ألا يبدؤوا بقتال أحد أو قتله حتى يتبينوا ؛ وأن يكتفوا بظاهر الإسلام فى كلمة اللسان إذ لا دليل هنا يناقض كلمة اللسان .

وقد وردت روايات كثيرة فى سبب نزول الآية ، خلاصتها : أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلاً معه غنم له . فقال : السلام عليكم . يعنى أنه مسلم . فاعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها ، فقتله ، ومن ثم نزلت الآية ، تحرج على مثل هذا التصرف ؛ وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع فى الغنيمة ؛ أو تسرع فى الحكم .. وكلاهما يكرهه الإسلام ؛ لأن ذلك عرض الحياة الدنيا ، ويذكرهم كيف منَّ عليهم من قبل وطهر نفوسهم ورفع أهدافها ، فلم يعودوا يغزون ابتغاء عرض الحياة الدنيا كما كانوا فى الجاهلية .

يقول صاحب الظلال : « إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين فى حساب ، إذا خرجوا يجاهدون فى سبيل الله ، إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه ، وكذلك التسرع بإهدار ده قبل التبين ، وقد يكون دم مسلم عزيز ، لا يجوز أن يراق ، والله ـ سبحانه ـ يذكر الذين آمنوا بجاهليتهم القريبة وما كان فيها من تسرع ورعونة ، وما كان فيها من طمع فى الغنيمة ، ويمن عليهم أن طهر نفوسهم ورفع أهدافهم » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن المؤمن لا يجوز له أن يقتل مؤمناً متعمداً بحال من الأحوال ؛ لأن دم المسلم حرام على المسلم وعلى المجتمع وعلى الدوله إلا فى أحوال ثلاث :

ـ الردة بعد الإيمان بشرط الاستتابة .

ـ الزنا بعد الإحصان بشرط الإقرار أو الشهود .

ـ النفس بالنفس فمن قتل يُقتل .

٢ ـ فى الحرب لا يجوز لمسلم أن يقتل رجلاً أعلن إسلامه ونطق بالشهادتين ؛ لأن ذلك وحده كاف لعصمة دمه ، ولأن القلوب والحقائق الكامنة فيها لا يطلع عليها إلا الله سبحانه .

٣ ـ حرمة دم المسلم أعظم عند الله من كل شىء حتى من الكعبة المشرفة لما رواه عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : رأيت رسول الله ﷺ يطوف بالكعبة ويقول : « ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذى نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك : ماله ودمه ، وأن نظن به إلا خيراً » .

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ
وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ
ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً
وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ
قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ
جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾
فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾
۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ
وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ
فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ
فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ
أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾

٩٤

معانى الكلمات :

القاعدون : الذين لا يجاهدون . **أولى الضرر** : أصحاب العذر المانع من الجهاد . **ظالمى أنفسهم** : بالإقامة فى دار الشرك . **مأواهم** : مقرهم . **مراغماً** : مهاجراً ومتحولاً ينتقل إليه . **ضربتم** : سرتم وسافرتم . **جُناح** : إثم . **يفتنكم** : الابتلاء والاختبار . **عدواً مبيناً** : عدوًا ظاهر العداوة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان قيمة الجهاد بالأموال والأنفس فى ميزان الله واعتبارات هذا الدين .

٢ ـ بيان مفهوم الجهاد بمعناه الواسع .

٣ ـ بيان مفهوم الهجرة بين الماضى والحاضر،وفضل المجاهدين على القاعدين

٤ ـ بيان فضل الهجرة فى سبيل الله وأثرها فى الدنيا والآخرة .

المحتوى التربوى :

الموضوع الأساسى لهذه الآيات هو الهجرة إلى دار السلام ؛ والحث على انضمام المسلمين المتخلفين فى دار الكفر والحرب إلى الصف المسلم فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، وترك الراحة النسبية والمصلحة كذلك فى البقاء بمكة ، إلى جوار الأهل والمال !

وتقرر هذه الآيات قاعدة عامة ؛ يقيم الله بها المؤمنين فى كل زمان ومكان ـ قاعدة عدم الاستواء بين القاعدين من المؤمنين عن الجهاد بالأموال والأنفس ـ غير أولى الضررالذين يقعدهم العجز عن الجهاد بالنفس ، أو يقعدهم الفقر والعجز عن الجهاد بالنفس والمال ـ عدم الاستواء بين هؤلاء القاعدين ، والآخرين الذين يجاهدون بأموالهم وأنفسهم ، ويبين طبيعة عدم الاستواء بين الفريقين ، ففى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى ، أن رسول الله ﷺ قال :« إن فى الجنة مائة درجة،أعدها الله للمجاهدين فى سبيله . وما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض» .

يقول القاسمى : « وهاهنا فوئد :

الأولى : دلت الآية على أن الجهاد ليس بغرض عين ، إذ لز كان فرضا من فروض الأعيان لم يكن للقاعد فضل ، ولكن تفاوت الفضل بينه وبين المجاهد ، وقال : قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ .

الثانية : دلت ـ أيضا ـ على أن الجهاد أفضل من القرب التى يفعلها القاعد ؛ لأنه فضله على القاعد مطلقا ..

الثالثة : **قال السيوطى** فى (الإكليل) : فى الآية تفضيل للمجاهدين على غيرهم ، وأن المعذورين فى درجة المجاهدين ، واستدل بقوله : ﴿ بِأَمْوَٰلِهِمْ ﴾ على تفضيل المجاهد بمال نفسه على المجاهد بمال يعطاه من الديون أو نحوه .

الرابعة : **قال الرازى** : القائل أن يقول : إنه تعالى قال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم ﴾ (التوبة :١١١)، فقدم ذكر النفس على المال،وفى الآية التى نحن فيها وهى قوله: ﴿ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ قدم ذكر المال على النفس فما السبب ؟ وجوابه : أن النفس أشرف من المال ، فالمشترى قدم ذكر النفس تنبيها على أن الرغبة فيها أشد ، والبائع أخر ذكرها تنبيها على أن أن المضايقة فيها أشد ، فلا يرضى ببذلها إلا فى آخر المراتب ... » .

ويقول صاحب الظلال: ﴿ وَكُلاًّ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ فللإيمان وزنه وقيمته على كل حال ؛ مع تفاضل أهله فى الدرجات وفق تفاضلهم فى النهوض بتكاليف الإيمان ؛ فيما يتعلق بالجهاد بالأموال والنفس ، وهذا الاستدراك هو الذى نفهم منه أن هؤلاء القاعدين ليسوا هم المنافقين المبطئين !إنما هم طائفة أخرى صالحة فى الصف المسلم ومخلصة؛ ولكنها قصرت فى هذا الجانب ؛ والقرآن يستحثها لتلافى التقصير ؛ والخير مرجو فيها ، والأمل قائم فى أن تستجيب .

بعد ذلك يتحدث عن فريق من القاعدين ؛ أولئك الذين يظلون قاعدين فى دار الكفر لا يهاجرون ؛ تمسك بهم أموالهم ومصالحهم ، أو يمسك بهم ضعفهم عن مواجهة متاعب الهجرة وآلام الطريق ـ وهم قادرون لو أرادوا واعتزموا التضحية ـ أن يهاجروا حتى يحين أجلهم ؛ وتأتى الملائكة لتتوفاهم . يتحدث عنهم فيصورهم صورة رزية منكرة ؛ تستنهض كل قاعد منهم للفرار بدينه وعقيدته ، وبمصيره عند ربه ؛ من الموقف الذى يرسمه لهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

ويقول صاحب المنار: « وهاك ما عندى فى الآية عن درس الأستاذ الإمام : ذكر تعالى فى الآية السابقة فضل المجاهدين فى سبيل الله على القاعدين لغير عجز، فعلم أن العاجز معذور ، ومعنى سبيل الله الطريق الذى يرضيه ويقيم دينه .

ثم ذكر حال قوم أخلدوا إلى السكون وقعدوا عن نصر الدين ، بل وعن إقامته حيث هو وعذروا أنفسهم بأنهم فى أرض الكفر حيث اضطهدهم الكافرون ومنعوهم من إقامة الحق وهم عاجزون عن مقاومتهم . ولكنهم فى الحقيقة غير معذورين ؛ لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم ، فهم بحبهم لبلادهم، وإخلادهم إلى أرضهم ، وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم ، ضعفاء فى الحق لا مستضعفون ، وهم بضعفهم هذا قد حرموا أنفسهم بترك الهجرة من خير الدنيا بعزة المؤمنين ، ومن خير الآخرة بإقامة الحق ، فظلمهم عبارة عن تركهم العمل بالحق خوفاً من الأذى وفقد الكرامة عند المبطلين » .

بعد ذلك يمضى السياق ويستثنى من لا حيلة لهم فى البقاء فى دار الكفر ؛ والتعرض للفتنة فى الدين ؛ والحرمان من الحياة فى دار الإسلام من الشيوخ الضعاف ، والنساء والأطفال ؛ فيعلقهم

بالرجاء فى عفو الله ومغفرته ورحمته بسبب عذرهم البين وعجزهم عن الفرار بدينهم ، وتعالج الآيات مخاوف النفس المتنوعة ؛ وهى تواجه مخاطر الهجرة، فى وضوح وصراحة ؛ فلا يكتم عنها شيئاً من المخاوف ؛ بما فى ذلك خطر الموت ، ولكنه يسكب فيها الطمأنينة بحقائق أخرى وبضمانة الله سبحانه وتعالى فهو يحدد أولاً بأن الهجرة فى سبيل الله .

وهذه هى الهجرة المعتبرة فى الإسلام . فليست هجرة للثراء ، أو هجرة للنجاة من المتاعب ، أو هجرة للذائذ والشهوات ، أو هجرة لأى عرض من أعراض الحياة ، ومن يهاجر هذه الهجرة ـ فى سبيل الله ـ يجد فى الأرض فسحة ومنطلقاً فلا تضيق به الأرض ، ولا يعدم الحيلة والوسيلة للنجاة وللرزق والحياة ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « هذا التصور الكاذب لحقيقة أسباب الرزق وأسباب الحياة والنجاة ـ الذى يخيل للنفس أن وسائل الحياة والرزق ، مرهونة بأرض ، ومقيدة بظروف ومرتبطة بملابسات لو فارقتها لم تجد للحياة سبيلاً ـ ؛ هذا التصور هو الذى يجعل النفوس تقبل الذل والضيم ، وتسكت على الفتنة فى الدين ؛ ثم تتعرض لذلك المصير البائس . مصير الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم . والله يقرر الحقيقة الموعودة لمن يهاجر فى سبيل الله ، إنه سيجد فى أرض الله منطلقاً وسيجد فيها سعة، وسيجد الله فى كل مكان يذهب إليه، يحييه ويرزقه وينجيه».

ولكن الأجل قد يوافى فى أثناء الرحلة والهجرة فى سبيل الله ، فمن مات فقد وقع أجره على الله ؛ أجره كله . أجر الهجرة إلى الله ورسوله، والرحلة والوصول إلى الإسلام والحياة فيها . فماذا بعد هذا الضمان من ضمان ؟

بعد ذلك يستطرد إلى رخصة يبيحها الله للمهاجرين ، أو الضاربين فى الأرض للجهاد فى حالة خوفهم أن يأخذهم الذين كفروا أسارى . فيفتنوهم عن دينهم ـ وهى رخصة القصر من الصلاة ـ وهو غير القصر المرخص للمسافر إطلاقاً سواء خاف فتنة الذين كفروا أو لم يخف فهذا قصر خاص .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن المجاهدين فى سبيل الله كل أنواع الجهاد ودرجاته ـ والدعوة والحركة جهاد ـ لهم عند الله منزلة أعلى ودرجة أكبر وأعظم من منزلة القاعدين .

٢ ـ أن القعود عن الجهاد فى سبيل الله تعالى ظلم للنفس يبلغ بصاحبه حد الكفر ، وبخاصة إذا قبل القاعد عن الجهاد أن يسكن فى دار الكفر ، ويعايش الكافرين ، ولم يهاجر إلى ديار المسلمين .

٣ ـ أن الله تعالى شرع لعباده التخفيف فى بعض العبادات عند وجود أسباب التخفيف من مشقة سفر أو حرب أو خوف ، وما ذلك إلا لأن هذا الدين يسر ولا حرج على العباد فى شىء من عباداته كلها .

٤ ـ الجهاد فى سبيل الله يتسع مدلوله ويتعمق لما هو أعم وأشمل من القتال فيشمل الحرب والإعداد لها ، والجهاد بالكلمة (خطبة ومحاضرة وبحثاً ودراسة ومحاورة ومناظرة لشرح دعوة الإسلام وإبلاغ الدعوة والحركة بالإسلام بين الناس ... إلخ) .

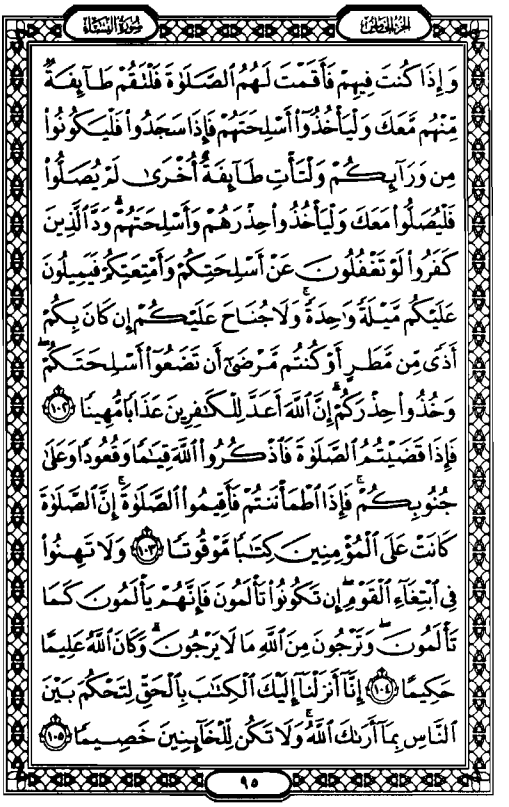
وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ
مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟
مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟
فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ
عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ
أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ
وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾
فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ
جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ
كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟
فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا
تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ
ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾
٩٥

معانى الكلمات :

حذرهم : التيقظ من العدو . **تغفلون** : تسهون . **قضيتم** : فرغتم وانتهيتم . **كتاباً موقوتاً** : فرضاً محدوداً بأوقات محددة لا يجوز التقديم أو التأخير فيها . **تهنوا** : تضعفوا . **فى ابتغاء القوم** : فى طلبهم بالحرب . **تألمون** : تتوجعون لما يصيبكم . **ترجون** : تأملون . **خصيماً** :مدافعاً عنهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية الحذر من العدو وإعداد العدة له دائماً .

٢ ـ أن نعرف كيفية صلاة الخوف .

٣ ـ بيان فرضية الصلاة وأهمية أدائها فى وقتها .

٤ ـ بيان حرمة الوهن فى طلب العدو وقتاله وطلبه والصبر على ذلك .

المحتوى التربوى :

وبمناسبة الحديث عن صلاة الضارب فى الأرض ، الخائف من فتنة الذين كفروا ، يجىء حكم صلاة الخوف فى أرض المعركة ؛ والسياق القرآنى لا يجىء بهذا النص لمجرد بيان الحكم الفقهى فى صفة صلاة الخوف ، ولكنه يحشد هذا النص فى حملة التربية والتوجيه والتعليم والإعداد للصف المسلم وللجماعة المسلمة .

ويقول صاحب الظلال : « وأول ما يلفت النظر هو الحرص على الصلاة فى ساحة المعركة ! ولكن هذا طبيعى بل بدهى فى الاعتبار الإيمانى ، إن هذه الصلاة سلاح من أسلحة المعركة ، بل إنها السلاح ، فلابد من تنظيم استخدام هذا السلاح بما يتناسب مع طبيعة المعركة ، وجوها !

ولقد كان أولئك الرجال ـ الذين تربوا بالقرآن وفق المنهج الربانى ـ يلقون عدوهم بهذا السلاح الذى يتفوقون فيه قبل أى سلاح . لقد كانوا متفوقين فى إيمانهم بإله واحد يعرفونه حق المعرفة ، ويشعرون أنه معهم فى المعركة ، متفوقين كذلك فى إيمانهم بهدف يقاتلون من أجله ؛ ويشعرون أنه أرفع الأهداف جميعاً . متفوقين أيضاً فى تصورهم للكون والحياة ولغاية وجودهم

الإنسانى ، تفوقهم فى تنظيمهم الاجتماعى الناشئ من تفوق منهجهم الربانى وكانت الصلاة رمزاً لهذا كله ، وتذكيراً بهذا كله ، ومن ثم كانت سلاحاً فى المعركة بل كانت هى السلاح !

والأمر الثانى الذى يلفت النظر فى هذا النص هو هذه التعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو ، وهذا الحذر الذى يوصى المؤمنين به تجاه عدوهم الذى يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ـ ليميل عليهم ميلة واحدة ! ومع هذا التحذير والتخويف ، يأتى الاطمئنان والتثبيت ؛ إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قوماً كتب الله عليهم الهوان ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ ، وهذا التقابل بين التحذير والتطمين ؛ وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر وسكب فيض الثقة ؛ هو طابع هذا المنهج فى تربية النفس المؤمنة والصف المسلم فى مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم !

أما كيفية صلاة الخوف ؛ فتختلف فيها آراء الفقهاء ، ولكننا نكتفى بالصفة العامة ، دون دخول فى تفصيل الكيفيات المتنوعة .

وهى : إذا كنت فيهم فأقمتهم فى الصلاة ، فلتقم طائفة منهم معك الركعة الأولى ، على حين تقف طائفة أخرى بأسلحتها من ورائكم لحمايتكم . فإذا أتمت الطائفة الأولى الركعة الأولى رجعت فأخذت مكان الحراسة ، وجاءت الطائفة التى كانت فى الحراسة ولم تصل فلتصل معك ركعة كذلك . (وهنا يسلم الإمام إذ يكون قد أتم صلاته ركعتين) . عندئذ تجىء الطائفة الأولى فتقضى الركعة الثانية التى فاتتها مع الإمام ، وتسلم بينما تحرسها الطائفة الثانية ، ثم تجىء الثانية فتقضى الركعة الأولى التى فاتتها وتسلم بينما تحرسها الطائفة الأولى .

وبذلك تكون الطائفتان قد صلتا بإمامة الرسول ﷺ وكذلك مع خلفائه وأمرائه وأمراء المسلمين منهم فى كل معركة .

ثم يوجههم إلى الاتصال بالله فى كل حال ، وفى كل وضع ، إلى جانب الصلاة ، فهذه هى العُدة الكبرى ؛ وهذا هو السلاح الذى لا يبلى .. فأما حين الاطمئنان ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ ، أقيموها كاملة تامة بلا قصر ، قصر الخوف الذى تحدثنا عنه ـ فهى فريضة ذات وقت محدد لأدائها ، ومتى زالت أسباب الرخصة فى صفة من صفاتها عادت إلى صفتها المفروضة الدائمة .

من قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ بأخذ الظاهرية رأيهم فى عدم قضاء الفائتة من الصلاة لأنها لا تجزء ولا تصح ؛ لأن الصلاة لا تصح إلا فى ميقاتها المعين، فمتى فات الميقات فلا سبيل لإقامة الصلاة والجمهور على صحة قضاء الفوائت . وعلى تحسين التبكير فى الأداء ، والكراهية فى التأخير .

ويختم هذه الآيات بالحث على المضى فى الجهاد ؛ مع الألم والضنى والكلال ويكشف بعد ذلك عن الشقة البعيدة بين جبهتى الصراع ، إن المؤمنين يحتملون الألم والقرح فى المعركة ولكنهم ليسوا وحدهم الذين يتحملونه .. إن أعداءهم كذلك يتألمون وينالهم القرح واللأواء ، ولكن شتان بين هؤلاء وهؤلاء ، إن المؤمنين يتوجهون إلى الله بجهادهم ، ويرتقبون عنده الثواب .. فأما الكفار فهم ضائعون مضيعون لا يتجهون لله ، ولا يرتقبون شيئاً فى الحياة ولا بعد الحياة .

ويقول صاحب الظلال : « فإذا أصر الكفار على المعركة ، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصراراً ، وإذا احتمل الكفار آلامها ، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام ، وما أجدرهم كذلك ألا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال ، وتعقب آثارهم ، حتى لا تبقى لهم قوة ، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله .

وسبيل العصبة المؤمنة حينئذ أن تحتمل ولا تنهار . وأن تعلم أنها إن كانت تألم ، فإن عدوها كذلك يألم . والألم أنواع . والقرح ألوان .. ﴿ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ﴾ .. وهذا هو العزاء العميق ، وهذا هو مفترق الطريق .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن المسلمين مطالبون دائماً بأن يكونوا متنبهين وعلى حذر من كل عدو ، رمزاً لوجوب الأخذ بالأسباب ، ووجوب الإعداد للأعداء .

٢ ـ مهما تحمل الدعاة إلى الله من آلام ومحن من أجل هذا الدين ، فهم بهذا التحمل والصبر فى معية الله تعالى وحفظه ، حتى لو مات بعضهم من التعذيب والتنكيل ، فقد حفظه الله من الفتنة والمعصية ومما لأة الظالمين ، وحفظ لهم عنده أجزل الأجر وأعظم الثواب .

٣ ـ استحباب ذكر الله تعالى بعد الصلاة وعلى كل حال من قيام وقعود واضطجاع .

٤ ـ حرمة الوهن والضعف إزاء حرب العدو وطلبه وجهاده والاستعانة على قتاله بذكر الله ورجائه .

٥ ـ مشروعية صلاة القصر وهى رخصة أكدها رسول الله ﷺ بقوله وعمله فأصبحت سنة مؤكدة لا ينبغى تركها .

٦ ـ التأكيد على صلاة الجماعة بحيث لا تترك حتى فى ساعة الخوف والقتال .

٧ ـ تقرير فرضية الصلاة ووجوب أدائها فى أوقاتها الموقوتة لها .

وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ
عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴿١٠٧﴾ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ
مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ
عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ
سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورٗا
رَّحِيمٗا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكۡسِبۡ خَطِيٓـَٔةً أَوۡ إِثۡمٗا
ثُمَّ يَرۡمِ بِهِۦ بَرِيٓـٔٗا فَقَدِ ٱحۡتَمَلَ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿١١٢﴾ وَلَوۡلَا
فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ وَرَحۡمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٞ مِّنۡهُمۡ أَن
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَيۡءٖۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا ﴿١١٣﴾

معانى الكلمات :

يختانون أنفسهم : يخونونها بارتكاب المعاصى . **خوانا أثيماً** : مُفرطاً فى الخيانة .

يبيتون : يدبرون فى الخفاء . **جادلتم** : دافعتم . **وكيلاً** : حافظاً ومحامياً من بأس الله وعذابه . **يكسب إثماً** : يرتكب ذنباً متعمداً . **يرم به بريئاً** : يتهم إنساناً بريئاً .

الكتاب والحكمة : القرآن والسنة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة من نزول القرآن الكريم .

٢ ـ بيان فضل الله ومنته على رسوله وعلى عباده .

٣ ـ أن نعرف القواعد العامة للحكم بين الناس ونلتزم فيها بأمر الله ورسوله .

٤ ـ بيان أهمية التوبة والاستغفار من الذنوب ، فلا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار .

المحتوى التربوى :

روى أن هذه الآيات نزلت فى طعمة بن أبيرق وإخوته ، وكان قد سرق درعاً من دار جار له يقال له قتادة ، وودعها عند يهودى يُقال له : زيد بن السمين ، ولما اتهم طعمة وخاف هو وإخوته المعرة رموا بها اليهودى ، وقالوا هو السارق ، وأتوا رسول الله ﷺ وحلفوا على براءة أخيهم فصدقهم رسول الله ﷺ وهمَّ بقطع يد اليهودى حداً لشهادة بنى أبيرق عليه وإذا بالآيات تنزل ببراءة اليهودى وإدانة طعمة ، ولما افتضح طعمة ، وكان منافقاً أعلن عن ردته وهرب إلى مكة ونقب جدار منزل ليسرق فسقط عليه الجدار ، فمات تحته كافراً .

يقول صاحب الظلال : « وأول ما يبدو فى هذه الآيات تذكير رسول الله ﷺ بتنزيل الكتاب إليه بالحق ليحكم بين الناس بما أراه الله ، واتباع هذا التذكير بالنهى عن أن يكون خصيماً ومدافعاً عن الخائنين ، يدافع عنهم ويجادل ، وتوجيهه لاستغفار الله سبحانه عن هذه المجادلة ، ثم تكرار

هذا النهى ؛ ووصف هؤلاء الخائنين ، الذين جادل عنهم ﷺ بأنهم يختانون أنفسهم ، وتعليل ذلك بأن الله لا يحب من كان خواناً أثيماً ؛ وهذه عقوبة أكبر من كل عقوبة ، فالذين لا يحبهم الله لا يجوز أن يجادل عنهم أحد ، ولا أن يحامى عنهم أحد ، وقد كرههم الله للإثم والخيانة! ويعقب الوصف بالإثم والخيانة تصوير منفر لسلوك هؤلاء الخونة الآثمين ، وهى صورة احتقار وسخرية ، زرية بما فيها من ضعف والتواء ، وهم يبيتون الكيد والمؤامرة والخيانة ؛ ويستخفون بها عن الناس . والناس لا يملكون لهم نفعاً ولا ضراً . بينما الذى يملك النفع والضر معهم وهم يبيتون ما يبيتون ؛ مطلع عليهم وهم يخفون نياتهم ويستخفون ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ .

وبعد هذه الحملة الغاضبة على الخونة الآثمين ، والعتاب للمنافحين عنهم والمجادلين ، يجىء تقرير القواعد العامة لهذه الفعلة وآثارها . وللحساب عليها والجزاء ، ولقاعدة الجزاء العامة إنها آيات ثلاث تقرر هذه المبادئ الكلية التى يعامل بها الله عباده ؛ والتى يملك العباد أن يعاملوا بعضهم بعضًا بها ، ويعاملوا الله على أساسها فلا يصيبهم السوء .

الآية الأولى : تفتح باب التوبة على مصراعيه وتطمع كل مذنب تائب فى العفو والقبول ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا ﴾ فالله الغفور يستقبل المستغفرين فى كل حين ؛ ويغفر لهم ويرحمهم متى جاؤوه تائبين ، هكذا بلا قيد ولا شرط ولا حجاب ولا بّواب .

الآية الثانية : تقرر فردية التبعة ، وهى قاعدة الجزاء فى الإسلام ، والتى تثير فى كل قلب شعور الخوف وشعور الطمأنينة ؛ الخوف من عمله وكسبه . والطمأنينة من ألا يحمل تبعة غيره ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ﴾ .

الآية الثالثة : تقرر تبعة من يكسب الخطيئة ثم يرمى بها البرىء .. فإنه يحتمل البهتان فى رميه البرىء ، والإثم فى ارتكابه الذنب الذى رمى به البرىء ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ﴾ .

ويقول صاحب المنار : « ولعل المراد بوجدان الله غفوراً رحيماً هو أن التائب المستغفر يجد أثر المغفرة فى نفسه بكراهة الذنب وذهاب داعيته ، ويجد أثر الرحمة بالرغبة فى الأعمال الصالحة التى تطهر النفس وتزيل ذلك الدرن منها . فيكون السوء أو الظلم الذى تاب منه العبد مصداقا لقول ابن عطاء الله السكندرى « رب معصية أورثت ذلاً وانكساراً خيرٌ من طاعة أورثت عزاً واستكباراً » والمراد الذل والانكسار لله عز وجل الذى يورث صاحبه العزة والرفعة مع غيره .

وأخيراً : يمن الله على رسوله ﷺ أن عصمه من الانسياق وراء المتآمرين المبيتين ، فأطلعه على مؤامراتهم التى يستخفون بها من الناس ، ولا يستخفون بها من الله ، وهو معهم إذ يبيتون ما لا

يرضى من القول . ثم يمتن عليه المنة الكبرى فى إنزال الكتاب والحكمة وتعليمه ما لم يكن يعلم، وهى المنة على البشرية كلها ، ممثلة ابتداء فى شخصه ﷺ وهو أكرمها على الله وأقربها لله . ويطمئنه فى الوقت ذاته أنهم لا يضرونه شيئاً بفضل من الله ورحمة » .

وبمناسبة المنّة فى حفظه من هذه المؤامرة الأخيرة ؛ وصيانة أحكامه من أن تتعرض لظلم برىء وتبرئة مذنب ، وكشف الحقيقة له وتعريفه بالمؤامرة تجىء المنَّة الكبرى .. منة الرسالة : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ .

ويقول صاحب الظلال : « وهى منّة الله على الإنسان فى هذه الأرض ، المنة التى ولد الإنسان معها ميلاداً جديداً ، ونشأ بها كما نشأ أول مرة بنفخة الروح الأولى ، المنة التى التقطت البشرية من سفح الجاهلية ؛ لترقى بها فى الطريق الصاعد ، إلى القمة السامقة عن طريق المنهج الربانى الفريد العجيب » .

يقول الإمام محمد عبده : فى قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ : « إذ اختصك بهذه النعم الكثيرة ، وأرسلك للناس كافة ، وجعلك خاتم النبيين ، فيجب أن تكون أعظم الناس شكراً له ، ويجب على أمتك مثل ذلك ليكونوا بهذا الفضل خير أمة أخرجت للناس، وقدوة لهم فى جميع الخيرات ».

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ الهدف من إنزال القرآن الكريم هو الحكم به بين الناس بالحق الذى علمه الله لرسوله ﷺ فى كتابه المبين .

٢ ـ الله تعالى لا يحب من كان خائناً يرتكب الآثام ويخاف الناس ولا يخاف الله .

٣ ـ المسلم مطالب بألا يدافع أو يخاصم أو يجادل عن أحد من الخونة ، وإنما عليه أن يتبين أنه أهل لأن يدافع عنه .

٤ ـ القاعدة العامة التى تفضل الله بها على عباده هى : أنْ وسعهم برحمته وشملهم بمغفرته إذا هم تابوا واستغفروا الله ، وهذا من أقوى الأدلة على حب الله لعباده التائبين المستغفرين .

٥ ـ كل عمل يقوم به الإنسان لا يرضى الله تعالى ؛ لأنه مخالف لما أمر ولما نهى لتضمنه ظلم نفسه ، فما عليه إلا أن يتوب ويستغفر ، ولو كانت ذنوبه مثل زبد البحر ، عندئذ يجد الله غفوراً رحيماً .

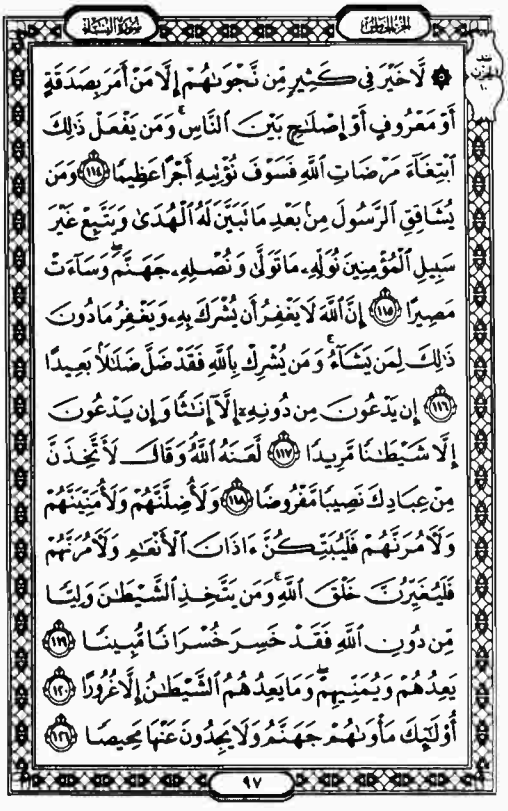
لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ
أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ
ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ وَمَن
يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ
سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ
مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا
﴿١١٦﴾ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ
إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ اللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ
مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ
وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ
فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا
مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾
أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾

معانى الكلمات :

نجواهم : ما يتكلم به الناس سراً .

يشاقق الرسول : يخالفه .

نُوَلِّهِ ما تَوَلَّى : نُخَلِّ بينه وبين ما اختاره لنفسه .

نُصلِه جهنم : ندخله إياها .

إناثاً : أصناماً يزِّينُونها كالنساء .

شيطانًا مَّريداً : متمرداً متجردًا من الخير .

مفروضاً : واجباً لى ، ومقطوعاً لى به .

فليبتكن : فليُقَطِّعنَّ أو فليشُقُّنَّ .

خلق الله : فطرة الله وهى دين الإسلام .

غروراً : خداعاً وباطلاً .

محيصاً : مهرباً ومفراً .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعرف الفرق بين التناجى المنهى عنه ، والمأمور به .

٢ ـ أن نعرف عاقبة من يشاقق الله ورسوله .

٣ ـ أن نحذر عدونا ـ القديم ـ الشيطان ، ونحذر مكائده لنا .

٤ ـ أن نعلم أن رحمة الله تتسع لكل ذنوب البشر ، والله يغفر كل الذنوب إلا الشرك .

المحتوى التربوى :

تعرض الآيات لحلقة جديدة من حلقات المنهج التربوى الحكيم ، فى إعداد الجماعة المسلمة لتكون الأمة التى تقود البشرية ؛ بتفوقها التربوى والتنظيمى ؛ وليعالج فيها مواضع الضعف البشرى ورواسب المجتمع الجاهلى ، فينهى عن النجوى ؛ وهى أن تجتمع طائفة بعيداً عن الجماعة المسلمة وعن القيادة المسلمة لتبيت أمراً .

ويستثنى النص القرآنى نوعاً من النجوى وذلك أن يجتمع الرجل الخير بأهل الخير . فيقول له : هلم نتصدق على فلان فقد علمت حاجته فى خفية عن الأعين . أو هلم إلى معروف معين

نفعله أو نحض عليه ، أو هلم نصلح بين فلان وفلان فقد علمت أن بينهما نزاعاً .. فهذا ليس نجوى ولا تآمرا .. ومن ثم سماه « أمراً » ؛ على شرط أن يكون الباعث هو ابتغاء مرضاة الله .

فلا يكون لهوى فى الصدقة على فلان ، أو الإصلاح بين فلان وفلان ، ولا يكون ليشتهر الرجل بأنه ـ والله رجل طيب ـ !يحض على الصدقة والمعروف، ويسعى فى الإصلاح بين الناس! ولا تكون هناك شائبة تعكر صفاء الاتجاه إلى الله ، بهذا الخير .

فهذا هو مفرق الطريق بين العمل يعمله المرء فيرضى الله عنه ويثيبه به . والعمل نفسه يعمله المرء فيغضب الله عليه ، ويكتبه فى سجل السيئات !

ثم ينتقل السياق ليتحدث عمن يشاقق الرسول ﷺ ، ويتخذ له منهجاً للحياة غير منهجه ﷺ، ويختار له طريقاً غير طريقه ﷺ ؛ وينكر منهج الإسلام جملة ، أو يؤمن ببعض ويكفر ببعض فيأخذ بشق من الإسلام ويطرح شقاً !

ويقول صاحب الظلال : « وقد اقتضت رحمة الله بالناس ، ألا يحق عليهم القول ، ولا يصلوا جهنم وساءت مصيراً ، إلا بعد أن يُرسل إليهم رسولاً ، وبعد أن يبين لهم ، وبعد أن يتبينوا الهدى ، ثم يختاروا الضلالة ، وهى رحمة الله الواسعة الحانية على هذا المخلوق الضعيف . فإذا تبين له الهدى ، ثم شاق الرسول ﷺ ولم يتبعه ويطعه ، فعندئذ يكتب الله عليه الضلال ، ويوليه الوجهة التى تولاها ، ويلحقه بالكفار والمشركين الذين توجه إليهم ، ويُحق عليه العذاب، ويعلل هذا المصير البائس السيئ ، بأن مغفرة الله ـ سبحانه ـ تتناول كل شىء .. إلا أن يشرك به .. فهذه لا مغفرة لمن مات عليها .

فلا غفران لذنب الشرك ـ متى مات صاحبه عليه ـ بينما باب المغفرة مفتوح لكل ذنب سواه، عندما يشاء الله ، والسبب فى تعظيم جريمة الشرك ، وخروجها من دائرة المغفرة ، أن من يُشرك بالله يخرج عن حدود الخير والصلاح تماماً ؛ وتفسد كل فطرته بحيث لا تصلح أبداً .

وينتقل السياق ليصف بعض أوهام الجاهلية العربية فى شركها . وأساطيرها حول اتخاذ الله بنات ـ هن الملائكة ـ وحول عبادتهم للشيطان ـ وقد عبدوه كما عبدوا الملائكة وتماثيلها الأصنام كما يصف بعض شعائرهم فى تقطيع أو تشقيق آذان الأنعام المنذورة للآلهة ! وفى تغييرهم خلق الله ، والشرك بالله ، وهو مخالف للفطرة التى فطر الناس عليها .

وهذه الأمور الشركية كلها من مكائد الشيطان ، وشعور الإنسان بأن الشيطان ـ عدوه القديم ـ هو الذى يأمر بهذا الشرك وتوابعه من الشعائر الوثنية ، يثير فى نفسه ـ على الأقل ـ الحذر من الفخ الذى نصبه العدو ، وقد جعل الإسلام المعركة الرئيسية بين الإنسان والشيطان ، ووجه قوى المؤمن كلها لكفاح الشيطان والشر الذى ينشئه فى الأرض ؛ والوقوف تحت راية الله وحزبه فى مواجهة الشيطان وحزبه .

ويقول صاحب الظلال : « والمعركة مع الشيطان : هى معركة دائمة لا تضع أوزارها ؛ لأن الشيطان لا يمل هذه الحرب التى أعلنها منذ لعنه وطرده . والمؤمن لا يغفل عنها ، ولا ينسحب منها . وهو يعلم أنه إما أن يكون ولياً لله ، وإما أن يكون ولياً للشيطان ؛ وليس هناك وسط .. » .

ويقول الشيخ محمد عبده عن إضلال الشيطان للناس : « إن إضلاله لمن يضلهم هو عبارة عن صرفهم عن العقائد الصحيحة بمعنى أن يشغلهم عن الدلائل الموصلة إلى الحق والهدى ، وأما التمنية فهى فى الأعمال بأن يزين لهم الاستعجال بالذات الحاضرة والتسويف بالتوبة وبالعمل الصالح ، بل هذا اسم جامع لأنواع وحى الشيطان كلها وتغريره للناس بعفو الله ورحمته ومغفرته » .

وحين يرتسم المشهد ـ كما **يقول صاحب الظلال** : « على هذا النحو، والعدو القديم ـ الشيطان ـ يفتل الحبال ، ويضع الفخ ، ويستدرج الفريسة ، لا تبقى إلا الجبلات الموكوسة المطموسة هى التى تظل سادرة لا تستيقظ، ولا تتلفت ولا تحاول أن تعرف إلى أى طريق تساق، وإلى أية هوة تُستهوى ! على حين تكون هذه هى حقيقة المعركة ، وحقيقة الموقف ، يجىء التعقيب ببيان العاقبة فى نهاية المطاف : عاقبة من يستهويهم الشيطان ، ويصدق عليهم ظنه ، وينفذ فيهم ما صرح به من نيته الشريرة .. فتكون عاقبتهم جهنم ولا محيص عنها لأولياء الشيطان » ، **ويقول صاحب المنار** ، ﴿ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴾ : « أى أولئك الذين يعبث بهم الشيطان بوسوسته أو بإغواء دعاة الباطل والشر من أوليائه ، مأواهم جهنم لا يجدون معدلاً عنها يفّرون إليه ؛ لأنهم منجذبون إليها بطبيعتهم يتهافتون فيها أنفسهم ، كما يتهافت الفراش فى النار » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن أكثر ما يتناجى به الناس وما يخوضون فيه من أحاديث لا نفع فيه ، بل قد يحمل الضُّر والشر لهم ولغيرهم باستثناء ثلاثة أمور تكون النجوى فيها من الخير وهى : الصدقة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإصلاح بين الناس .

٢ ـ أن مشاقة ـ مخالفة ـ الرسول ﷺ ومنهجه وهديه كفر بواح ، ومرتكبه له عند الله تعالى أخزى الجزاء ، وأسوأ المصير .

٣ ـ أن الصدقة من خير ما يتناجى به الناس أو يتواصون بفعله ، علاوة على أنها تطفئ غضب الرب .

٤ ـ أن رحمة الله بعباده تتسع لكل الأخطاء بل الجرائم التى هى دون الشرك بشرط التوبة والندم ، واستغفار الله تعالى . أما الشرك به سبحانه وتعالى فذنب لا يغتفر ، وجريمة ليس كمثلها جريمة ، والله تعالى لا يغفر أن يشرك به .

٥ ـ أن نحذر عدونا ـ القديم والأزلى ـ إبليس عليه لعنة الله ، ونفطن لمكائده التى يحيكها لنا ليلاً ونهاراً .

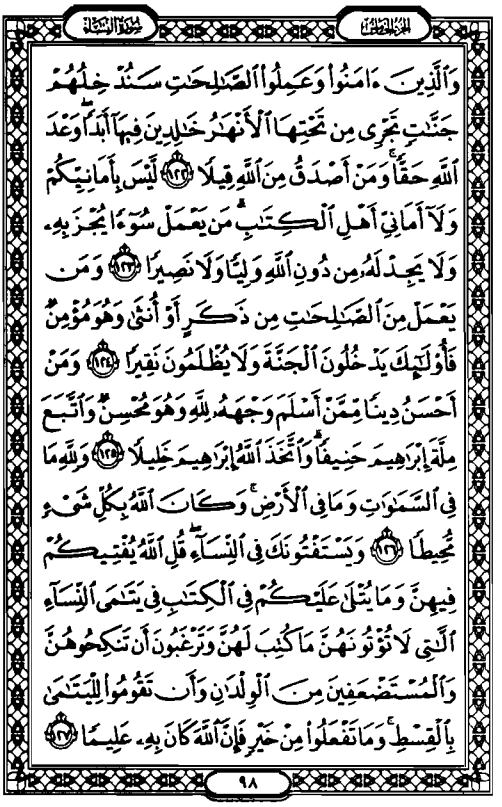
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ
جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ وَعْدَ
ٱللَّهِ حَقًّا ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴿١٢٢﴾ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ
وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ
وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن
يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ
فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ
أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ
مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾ وَلِلَّهِ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ
مُّحِيطًا ﴿١٢٦﴾ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ
فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ
ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ
وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ
بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾
٩٨

معانى الكلمات :

قيلاً : قولاً . **بأمانيكم** : حب الأمانى والأهواء . **ولياً** : حافظاً . **نقيراً** : قدر نقرة صغيرة فى ظهر النواة . **محسن** : موحد ، ومطيع لأوامر الله . **حنيفاً** : مائلاً عن الباطل . **خليلاً** : صفياً ، خالص المحبة .

محيطاً : عالماً بكل شىء ، وعلمه نافذ .

أن تنكحوهن : أن تتزوجوهن .

بالقسط : بالعدل ، فى الميراث والأموال .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حقيقة الدين . وكونه ليس بالأمانى . وشرط قبول الإيمان .

٢ ـ أن نعرف القاعدة الحاكمة فى الجزاء ومحاسبة البشر أمام الله عز وجل .

٣ ـ أن نعرف الحكمة من الفتوى فى أمور الدين ، وما يترتب عليها .

المحتوى التربوى :

بعد أن بيّن الله عاقبة من يستهويهم الشيطان ، ويصدق عليهم ظنه ، يأتى بيان عاقبة من يفلتون من حبالته ، لأنهم آمنوا بالله حقاً ، والمؤمنون بالله حقاً فى نجاة من هذا الشيطان لأنه ـ لعنة الله عليه ـ وهو يستأذن فى إغواء الضالين ، لم يؤذن له فى المساس بعباد الله المخلصين ، فهو إزاءهم ضعيف ضعيف ، كلما اشتدت قبضتهم على حبل الله المتين ، والعاقبة هى جنات الخلد لا خروج منها لأولياء الله ..وعد الله : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ﴾ . والصدق المطلق فى قول الله هنا ؛ يُقابل الغرور الخادع ، والأمانى الكاذبة فى قول الشيطان هناك ! وشتان بين من يثق بوعد الله ومن يثق بتغرير الشيطان !

ثم يعقب السياق بقاعدة الإسلام الكبرى فى العمل والجزاء ، إن ميزان الثواب والعقاب ليس موكلاً إلى الأمانى . إنه يرجع إلى أصل ثابت ، وسنة لا تتخلف ، وقانون لا يحابى قانون تستوى أمامه الأمم ـ فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر ـ وليس أحد تخرق له

القاعدة ، وتخالف من أجله السنة ، ويعطل لحسابه القانون ، إن صاحب السوء مجزى بالسوء ؛ وصاحب الحسنة مجزى بالحسنة ولا محاباة فى هذا ولا مماراة .

ويقول صاحب الظلال : « لقد كان اليهود والنصارى يقولون : « نحن أبناء الله وأحباؤه » .. وكانوا يقولون : ﴿ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ﴾ ، وكان اليهود لا يزالون يقولون : إنهم شعب الله المختار ! ولعل بعض المسلمين كانت تراود نفوسهم كذلك فكرة أنهم خير أمة أخرجت للناس . وأن الله متجاوز عما يقع منهم .. بما أنهم المسلمون .

فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل وحده ، ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد ، هو إسلام الوجه لله ـ مع الإحسان ـ واتباع ملة إبراهيم وهى الإسلام .

إبراهيم الذى اتخذه الله خليلاً ، فأحسن الدين هو هذا الإسلام ، وأحسن العمل هو الإحسان ، والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، وقد كتب الله الإحسان على كل شىء حتى فى إراحة الذبيحة عند ذبحها ، وحد الشفرة ، حتى لا تعذب وهى تذبح !

وفى الآيات التسوية بين شقى النفس الواحدة ، فى موقفها من العمل والجزاء ؛ كما أن فيه شرط الإيمان لقبول العمل ، وهو الإيمان بالله .

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ ، وهو نص صريح على وحدة القاعدة فى معاملة شقى النفس الواحدة ـ من ذكر أو أنثى ـ كما هو نص صريح فى اشتراط الإيمان لقبول العمل ، وأنه لا قيمة عند الله لعمل لا يصدر عن الإيمان ولا يصاحبه الإيمان . وذلك طبيعى ومنطقى ، لأن الإيمان بالله هو الذى يجعل العمل الصالح يصدر عن تصور معين وقصد معلوم ؛ كما يجعله حركة طبيعية مطردة ، لا استجابة لهوى شخصى ، ولا فلتة عابرة لا تقوم على قاعدة .

ويستكمل النص القرآنى علاج رواسب المجتمع الجاهلى ، فيما يختص بالمرأة والأسرة ؛ وفيما يختص بمعاملة الضعاف فى المجتمع كاليتامى والأطفال ؛ وهذه الآيات تعالج بعض هذه الشؤون ، وتربطها بنظام الكون كله ، مما يشعر معه المخاطب بهذه الآيات ، أن أمر النساء والبيوت والأسرة والضعاف فى المجتمع ، هو أمر خطير كبير وهو فى حقيقته أمر خطير كبير .

يقول صاحب الظلال : « لقد أثارت الآيات التى نزلت فى أوائل السورة عن النساء أسئلة واستفتاءات فى بعض شأنهن ، وظاهرة سؤال المسلمين واستفتائهم فى بعض الأحكام ظاهرة لها دلالتها فى المجتمع المسلم الناشئ ؛ وفى رغبة المسلمين فى معرفة أحكام دينهم فى شؤون حياتهم ، فقد كانت الهزة التى أحدثتها النقلة من الجاهلية إلى الإسلام فى نفوسهم هزة عميقة حيث أصبحوا يشكون ، ويشفقون من كل أمر كانوا يأتونه فى الجاهلية مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه أو عدله ويتطلبون أن يعرفوا حكم الإسلام فى كل ما يعرض لهم فى حياتهم اليومية من

الشؤون ، لقد كانت بالقوم حاجة إلى معرفة أحكام دينهم ؛ لأنها هى التى تكوّن نظام حياتهم الجديدة . وكانت بهم حرارة لهذه المعرفة ، لأن الغرض منها هو إيجاد التطابق بين واقع حياتهم وأحكام دينهم .

وكان بهم انخلاع من الجاهلية ، وإشفاق من كل ما كان فيها من تقاليد وعادات وأوضاع وأحكام . مع شدة إحساسهم بقيمة هذا التغيير الكامل الذى أنشأه الإسلام فى حياتهم، ـ أو بتعبير أدق بقيمة ـ هذا الميلاد الجديد الذى ولدوه على يدى الإسلام . وهنا نجد جزاء تطلعهم لله، وجزاء حرارتهم ، وصدق عزيمتهم على الاتباع ، نجد جزاء هذا كله عناية من الله ورعاية ، بأنه ـ سبحانه بذاته العلية ـ يتولى إفتاءهم فيما يستفتون فيه ».

فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾ ، يقول صاحب المنار : « أى وما تفعلوه من الخير لليتامى بترجيح منفعتهم ، والزيادة فى قسطهم ، فهو مما لا يعزب عن علمه تعالى ولا ينسى الإنابة عليه ، كسائر أفعال الخير ، وهذا ترغيب فى الإحسان إلى اليتامى وتكميل لبيان مراتب معاملتهم وهى ثلاث :أولاها هضم شيء من حقوقهم وهى المحرمة السفلى . والثانية:القيام لهم بالقسط والعدل التام بألّا يظلموا من حقهم شيئاً وهى الواجبة الوسطى. والثالثة الزيادة فى رزقهم وإكرامهم بما ليس لهم من مال ، وما لا يجب لهم من عمل ، وهى المندوبة الفُضلى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن الدين والتدين ليس بالتمنى ، كما أنه ليس بالادعاء الظاهرى ، ولكنه ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، والعبرة فيه بالطاعة لله ولرسوله والاتباع لما فى شريعته .

٢ ـ أن كمال الإيمان لا يحصل إلا مع تفويض الأمر كله لله فى جميع الأمور ، والاستسلام له فى كل شيء .

٣ ـ أن القاعدة العامة فى الجزاء هى : ﴿ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ ﴾ والقاعدة الأخرى التى تكمل العدل والإنصاف هى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ .

٤ ـ أن كل شيء فى السموات والأرض ، وفى كل شيء من خلق الله هو على وجه الحقيقة ملك لله تعالى ، وتصرفه فيه سبحانه لا معقب عليه ولا راد له .

٥ ـ أن الأصل فى الالتزام بشريعة الإسلام أن يعمل كل مسلم ما وسعه من أجل أن يصل الحق إلى صاحبه ، مهما كان صاحبه ضعيفاً لصغره أو يُتمه ولداً كان أو بنتاً .

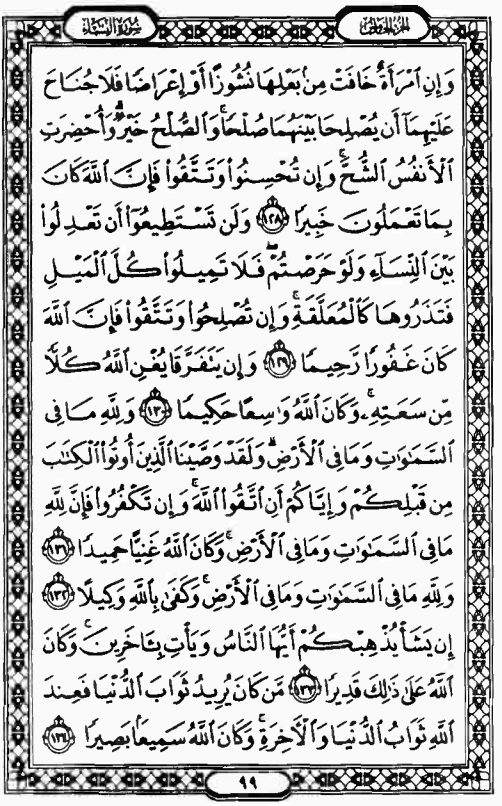
وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ
ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟
بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ
فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا
مِّن سَعَتِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾
وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾
إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ
ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾
٩٩

معانى الكلمات :

بعلها : زوجها . **نشوزاً** : تجافياً عنها ، وترفعاً عليها . **إعراضاً** : انصرافاً .

جُناح : لا إثم ، ولا حرج . **الشح** : شدة البخل . **أن تعدلوا** : فى المحبة والمؤانسة .

فلا تميلوا كل الميل : فلا تميلوا عن المرغوب عنها . **من سعته** : من غناه .

فتذروها كالمعلقة : ليست مطلقة ، وليست لها زوج . **وكيلاً** : شهيداً .

إن يشأ يذهبكم : يهلككم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان كيفية حل الخصومات والنزاعات بين الزوجين من القرآن الكريم .

٢ ـ بيان ما ينبغى على الزوجين حين يحتدم الخلاف .

٣ ـ بيان أهمية الأسرة ومكانتها فى المجتمع وعناية القرآن بتنظيم أحوالها .

المحتوى التربوى :

يستأنف السياق الحديث عن التنظيم الاجتماعى ـ فى محيط الأسرة ـ فى هذا المجتمع الذى كان الإسلام ينسبه بمنهج الله المتنزل من الملأ الأعلى ، لا بعوامل التغير الأرضية فى عالم المادة أو دنيا الإنتاج ؛ ولقد نظم المنهج ـ من قبل ـ حالة النشوز من ناحية الزوجة والإجراءات التى تتخذ للمحافظة على كيان الأسرة ، وهنا ينظم حالة النشوز والإعراض حين يخشى وقوعها من ناحية الزوج ، فتهدد أمن المرأة وكرامتها ، وأمن الأسرة كلها كذلك . إن القلوب تتقلب ، وإن المشاعر تتغير ، والإسلام منهج حياة يعالج كل جزئية فيها ، ويتعرض لكل ما يعرض لها ؛ فى نطاق مبادئه واتجاهاته ، وتصميم المجتمع الذى يرسمه وينشئه وفق هذا التصور .

فإذا خشيت المرأة أن تصبح مجفوة ؛ وأن تؤدى هذه الجفوة إلى الطلاق ـ وهو أبغض الحلال إلى الله ـ أو إلى الإعراض ، الذى يتركها كالمعلقة . لا هى زوجة ولا هى مطلقة فليس هناك حرج عليها ولا على زوجها ، أن تتنازل له عن كل شىء من فرائضها المالية أو فرائضها الحيوية ، كأن تترك له جزءاً أو كلا من نفقتها الواجبة عليه ، أو أن تترك له قسمتها وليلتها . ، إن كانت له زوجة أخرى يؤثرها ، وكانت هى قد فقدت حيويتها للعشرة الزوجية أو جاذبيتها ، هذا كله إذا رأت هى ـ بكامل اختيارها وتقديرها لجميع ظروفها ـ أن ذلك خير لها وأكرم من طلاقها .

ثم يعقب على الحكم ـ بأن الصلح إطلاقاً خير من الشقاق والجفوة والنشوز والطلاق ، وهو هنا ـ فى هذا الحكم ـ يتعامل مع هذا الإنسان وينص على سمة من سماته فى هذا المجال وهى الشح فى قوله : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ أى أن الشح حاضر دائماً فى الأنفس ، وهو دائماً قائم فيها بكل أنواعه ، وقد تترتب فى حياة الزوجين ـ أو تعرض ـ أسباب تستثير هذا الشح فى نفس الزوج تجاه زوجته ، فيكون تنازلها له عن شىء من مؤخر صداقها أو من نفقتها ـ إرضاء لهذا الشح بالمال ، تستبقى معه عقدة النكاح ! والأمر على كل متروك فى هذا للزوجة وتقديرها لما تراه مصلحة لها ، لا يلزمها التشريع بشىء ؛ ولكنه فقط يجيز لها التصرف ، ويمنحها حرية النظر والتدبر فى أمرها وفق ما تراه .

وبالرغم من اعتراف المنهج الربانى بطبيعة النفس البشرية ، وما فيها من شح ، يهتف لها هتافاً آخر وهو الإحسان والتقوى ؛لأنها مناط الأمر فى النهاية ، ولن يضيع منها شىء على صاحبه ، فإن الله خبير بها تعمله كل نفس؛ خبير ببواعثه وكوامنه ، والهتاف للنفس المؤمنة بالإحسان والتقوى ، والنداء لها باسم الله الخبير بها تعمل ، هتاف مؤثر ونداء مستجاب ، ويواجه النص واقع النفس البشرية ، وملابسات الحياة البشرية ، فالله الذى فطر النفس يعلم من خطراتها أنها ذات ميول لا تملكها ، ومن ثم أعطاها لهذه الميول خطاماً لينظم حركتها فقط ، لا ليعدمها ويقتلها !

من هذه الميول أن يميل القلب البشرى إلى إحدى الزوجات ويؤثرها على الأخريات فيكون ميله إليها أكثر من الأخرى أو الأخريات ، وهذا ميل لا حيلة له فيه ؛ ولا يملك محوه أو قتله .. فهاذا ؟ إن الإسلام لا يحاسبه على أمر لا يملكه ، فيدعه موزعاً بين ميل لا يملكه وأمر لا يطيقه ! بل إنه يصارح الناس بأنهم لن يستطيعوا أن يعدلوا بين النساء ـ ولو حرصوا ـ لأن الأمر خارج عن إرادتهم . ولكن هناك ما هو داخل فى إرادتهم . هناك العدل فى المعاملة والقسمة ، والنفقة والعدل فى الحقوق الزوجية كلها ، حتى الابتسامة فى الوجه ، والكلمة الطيبة باللسان .

فأما حين تجف القلوب ، فلا تطيق هذه الصلة ؛ ولا يبقى فى نفوس الزوجين ما تستقيم معه الحياة ، فالتفرق إذن خير ؛ لأن الإسلام لا يمسك الأزواج بالسلاسل والحبال ، إنما يمسكهم بالمودة والرحمة ، أو بالواجب والتجمل ، فإذا حدث التفرق ، فإن الله يَعِد كلاً منهما أن يغنيه من

فضله هو ، ومما عنده هو ، وهو ـ سبحانه ـ يسع عباده ويوسع عليهم بما شاء فى حدود حكمته وعلمه بما يصلح لكل حال .

ثم ينتقل السياق بعد نظم شؤون الأسرة ، ليتناول قطاعاً آخر بالتنظيم الربانى ليربط نظم الأسرة بالنظام الكونى كله ؛ وسلطان الله فى الكون كله ، وملكية الله للكون كله ، ووحدة الوصية التى وصى الله بها الناس فى كتبه كلها ؛ وثواب الدنيا ، وثواب الآخرة ، وهى القواعد التى يقوم عليها المنهج كله ، قواعد الحق والعدل والتقوى .

ويكثر فى القرآن التعقيب على الأحكام ، وعلى الأوامر والنواهى بأن لله ما فى السموات وما فى الأرض ؛ أو بأن لله ملك السموات والأرض ، فالأمران متلازمان فى الحقيقة . فالمالك هو صاحب السلطان فى ملكه ؛ وهو صاحب حق التشريع لمن يحتويهم هذا الملك . والله وحده هو المالك ، ومن ثم فهو وحده صاحب السلطان الذى يشرع به للناس ، كذلك يبرز هنا من وصية الله ـ سبحانه ـ لكل من أنزل عليهم كتاباً ، الوصية بالتقوى ، وذلك بعد تعيين من له ملكية السموات والأرض ومن له حق الوصية فى ملكه ، فصاحب السلطان الحقيقى هو الذى يُخشى ويُخاف . وتقوى الله هى الكفيلة بصلاح القلوب ، وحرصها على منهجه فى كل جزئياته ، كذلك يبين لمن يكفرون ضآلة شأنهم فى ملك الله ؛ وهو أن أمرهم إليه سبحانه ؛ وقدرته على الذهاب بهم والمجىء بغيرهم ، ويختم هذا التعقيب بتوجيه القلوب الطامعة فى الدنيا وحدها ، إلى أن فضل الله أوسع ، فعنده ثواب الدنيا والآخرة وفى استطاعة الذين يقصرون همهم على الدنيا أن يتطلعوا بأنظارهم وراءها ، وأن يأملوا فى خير الدنيا وخير الآخرة .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أن على الزوجين أن يصلحا ما بينهما على النحو الذى يحفظ لكل منهما حقه ، ويلتزم بأداء واجبه ، لأن المبدأ العام فى جميع أحوال التنازع هو : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ، ومع هذا الخير تزول أسباب الخصام والنشوز والإعراض .

٢ ـ أن الزوجين مطالبان بتقوى الله فى تعاملهما ، وتقوى الله فى أوضح صورها وأبسطها هى خوف الوقوع فى الإثم والحرج ، وما يوقع الإنسان فى الإثم والحرج إلا مخالفته سبحانه فيما أمر أو نهى .

٣ ـ أن الزوجين إذا افترقا ، وقد أصلح كل منهما ما وسعه واتقى الله فى الطرف الآخر ، ثم استحالت بينهما العشرة فإن الله تعالى سيجعل لكل منهما عوضاً عن الآخر خيراً منه إذا حسنت نيته واتقى الله كما أمره .

٤ ـ أن من لم يتق الله تعالى فى نفسه أو مع غيره فما أضر إلا نفسه ، وما ضر الله فى شىء ؛ لأنه سبحانه غنى عن تقوى الناس وعبادتهم ، وإنما هم المحتاجون إلى تلك التقوى والعبادة لتستقيم لهم معها حياة إنسانية كريمة .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ
وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا
أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن
تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ
عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ
بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا
ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ
سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ
يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ
عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي
الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا
تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ
إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

١٠٠

معانى الكلمات :

قوامين بالقسط: محافظين على إقامة العدل.

شهداء لله : مخلصين الشهادة لله .

تلووا : تحرفوا فى الشهادة . **أولى بهما :** أحق بهما . **أن تعدلوا :** كراهة العدول عن الحق.

تعرضوا : تتمنعوا عن أدائها .

أيبتغون عندهم العزة : أيطلبون بموالاة الكفار القوة والغلبة .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية إقامة العدل ، وأثره فى كيان الجماعة المسلمة .

٢ ـ أن نعلم أهمية أداء الشهادة لله ، ونؤديها على وجهها الصحيح .

٣ ـ أن نعرف متطلبات الإيمان الكامل ، ونلتزم به .

٤ ـ أن نعلم ضوابط الجلوس مع المنافقين والكافرين .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات نواصل مع السياق حلقات التربية المنهجية ؛ لرسم قواعد المنهج التربوى فى القرآن الكريم ، الموضوع للناس جميعاً ، فى أجيالهم كلها ، لتأخذ بيدهم من سفوح الجاهلية ، إلى قمم الإسلام السامقة . فيأمر الجماعة المسلمة بإقامة العدل بين الناس ؛ العدل الذى تتعامل فيه الجماعة مع الله مباشرة ، متجردة من كل عاطفة أو هوى أو مصلحة . متجردة من كل اعتبار آخر غير تقوى الله ومرضاته ، ثم يدعوهم دعوة ثانية إلى الإيمان بعناصر الإيمان الشامل بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر .

يقول صاحب الظلال : « ولكل عنصر من هذه العناصر قيمته فى تكوين العقيدة الإيمانية ، وقيمته فى تكوين التصور الإسلامى، المتفوق على جميع التصورات الأخرى التى عرفتها البشرية، قبل الإسلام وبعده ، والذى يحمل عنصر التفوق دائماً لكل جماعة تؤمن به حقاً وتعمل

بمقتضياته كاملة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . حيث تحق كلمة الله : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ .

وبعد الأمر بالإيمان ، يجيء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان ، مع التفصيل فيها فى موضع البيان قبل العقاب .. والذى يكفر بالله الذى تؤمن به الفطرة فى أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعى فيها ، ويكفر بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، استمداداً من كفره بالحقيقة الأولى الذى يكفر هذا الكفر تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب ، الحد الذى لا يُرجى معه هدى ؛ ولا يرتقب بعده مآب !

وبعد هذين النداءين بإقامة العدل والإيمان وبيان عناصره ، يأخذ السياق فى الحملة على النفاق والمنافقين ، ويبدأ بوصف حالة من حالاتهم الواقعة ـ حينذاك ـ فالكفر الذى يسبق الإيمان يغفره الإيمان ويمحوه ، فالذى لم يشهد النور معذور إذا هو أدلج فى الظلام ، فأما الكفر بعد الإيمان مرة ومرة فهو الكبيرة التى لا مغفرة لها ولا معذرة ؛ لأن الكفر حجاب فمتى سقط اتصلت الفطرة بالله ، وذاقت الروح حلاوة الإيمان . فالذين يرتدون بعد الإيمان مرة ومرة ، إنما يفترون على الفترة عن معرفة ، ويلجون فى الغواية عن عمد ، ويذهبون مختارين إلى التيه الشارد والضلال البعيد . فَعدلٌ ألا يغفر الله لهم ؛ وعدلٌ ألا يهديهم سبيلاً ؛ لأنهم الذين أضاعوا السبيل بعدما عرفوه وسلكوه . وهم الذين اختاروا السيئة والعمى ، بعدما هدوا إلى المثابة والنور .

ويستأنف السياق الحملة على المنافقين باستعمال كلمة « بشر » مكان كلمة أنذر ، وفى جعل العذاب الأليم ينتظر المنافقين بشارة ! ثم ببيان سبب هذا العذاب الأليم ، وهو ولايتهم للكافرين دون المؤمنين ، وسوء ظنهم بالله ؛ وسوء تصورهم لمصدر العزة والقوة .

والكافرون المذكورون هنا هم ـ على الأرجح ـ اليهود ؛ الذين كان المنافقون يأوون إليهم ، ويتخنسون عندهم ، ويبيتون معهم للجماعة المسلمة شتى المكائد » . والله جل جلاله ـ يسأل فى استنكار : لم يتخذون الكافرين أولياء وهم يزعمون الإيمان ؟ لم يضعوا أنفسهم هذا الموضع ، ويتخذون لأنفسهم هذا الموقف ؟ أهم يطلبون العزة والقوة عند الكافرين ؟ لقد استأثر الله ـ عز وجل ـ بالعزة ؛ فلا يجدها إلا من يتولاه ؛ ويطلبها عنده ؛ ويرتكن إلى حماه .

ويقول صاحب الظلال مُعلقاً : « ألا إنه لسند واحد للنفس البشرية تجد عنده العزة ، فإن ارتكنت إليه استعلت على من دونه ، وألا إنها لعبودية واحدة ترفع النفس البشرية وتحررها ، العبودية لله ، فإنّ لم تطمئن إليها النفس استعبدت لقيم شتى ؛ وأشخاص شتى ؛ واعتبارات شتى، ومخاوف شتى ، ولم يعصمها شيء من العبودية لكل أحد ولكل شيء ولكل اعتبار .

وإنه إما عبودية لله كلها استعلاء وعزة وانطلاق . وإما عبودية لعباد الله كلها استخذاء وذلة وأغلال ، ولمن شاء أن يختار .

وما يستعز المؤمن بغير الله وهو مؤمن . وما يطلب العزة والنصرة والقوة عند أعداء الله وهو يؤمن بالله .، وما أحوج ناساً ممن يدَّعون الإسلام ؛ ويتسمون بأسماء المسلمين ، وهم يستعينون بأعدى أعداء الله فى الأرض ، أن يتدبروا هذا القرآن ، إن كانت بهم رغبة فى أن يكونوا مسلمين، وإلا فإن الله غنى عن العالمين !

ويوضح أولى مراتب النفاق وهو أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها ، فيسكت ويتغاضى ، يسمى ذلك تسامحاً ، أو يسميه دهاء ، أو يسميه سعة صدر وأفق وإيماناً بحرية الرأى !!! وهذه هى الهزيمة الداخلية تدب فى أوصاله ؛ وهو يموه على نفسه فى أول الطريق ، حياء منه أن تأخذه نفسه متلبساً بالضعف والهوان .

ويقول صاحب الظلال: « إن الحمية لله ، ولدين الله ، ولآيات الله ، هى آية الإيمان وما تفتر هذه الحمية إلا وينهار بعدها كل سد ؛ وينزاح بعدها كل حاجز ، وينجرف الحطام الواهى عند دفعة التيار ، وإن الحمية لتكبت فى أول الأمر عمداً ثم تهمد . ثم تخمد . ثم تموت ! فمن سمع الاستهزاء بدينه فى مجلس ، فإما أن يدفع ، وإما أن يقاطع المجلس وأهله . فأما التغاضى والسكوت فهو أول مراحل الهزيمة . وهو المعبر بين الإيمان والكفر على قنطرة النفاق !

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًّا :

١ ـ أن العدل والحق جوهر رسالة الإسلام ، وإقرارهما هو واجب المسلمين الثابت الذى لا ينفك عنهم ، ولا يجوز لهم أن ينفكوا عنه حتى لو كان تعاملهم مع أعدائهم .

٢ ـ لابد من تجديد الإيمان وترسيخه بمزيد من العمل الصالح واليقين الراسخ ، والتوكل على الله ، والاستمداد منه .

٣ ـ الإيمان القوى الراسخ لا تزحزحه الأحداث ، ولا يصاحبه خوف من بطش باطش ولا ظلم ظالم .

٤ ـ من علامات النفاق موالاة الكفار، واتخاذهم نصراء وأعوانًا وأصدقاء من دون المؤمنين .

٥ ـ مجالس اللهو والمعصية والاستهزاء بآيات الله والفسق والفجور يحرم ارتيادها على المسلمين .

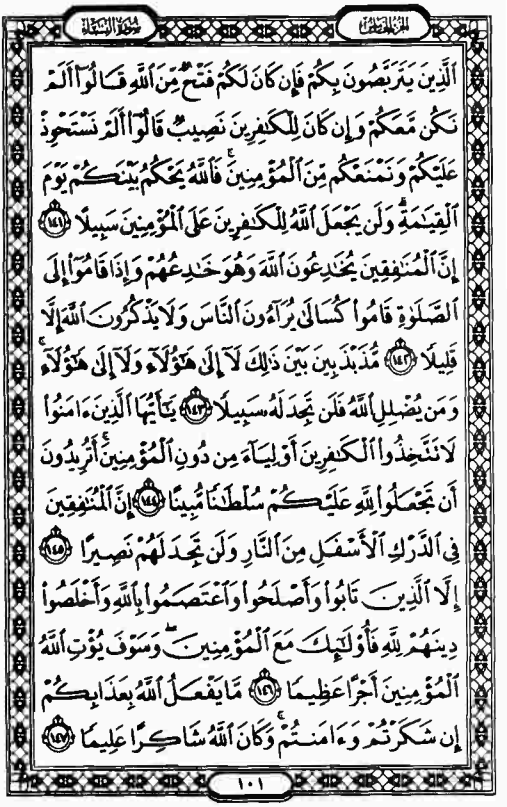
الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ
نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ
عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۚ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى
الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَلَا إِلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ
وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ
أَن تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا ﴿١٤٤﴾ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ
فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾
إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا
دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ
الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾ مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ
إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾
١٠١

معانى الكلمات :

يتربصون بكم : ينتظرون ما يحدث لكم .

فتح : نصر وظَفر وغنيمة . **يخادعون الله** : يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر .

ألم نستحوذ عليكم : ألم نغلبكم فأبقينا عليكم . **مذبذبين بين ذلك** : مُردَّدين بين الكفر والإيمان .

سُلطانا مبيناً : حُجّةً ظاهرة فى العذاب .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ أن نعلم صفات المنافقين فنحذرهم، ولا نتمثل سلوكهم .

٢ ـ أن نعلم موازين الغلبة على الكافرين والمنافقين فنسلكها .

٣ ـ بيان ضرورة إخلاص العبادة لله ، والاجتهاد فيها ، والقيام إليها بنشاط ورغبة ، وحب لله ، وبعد عن الرياء.

٤ ـ بيان أهمية التوبة والشكر وكونهما سبيل النجاة من عذاب الله .

المحتوى التربوى :

يأخذ السياق القرآنى ـ فى هذه الآيات ـ فى بيان سمات المنافقين ، فيرسم لهم صورة منفرة ؛ وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه ؛ ويمسكون العصا من وسطها ، ويتلوون كالديدان والثعابين ، فهم يتربصون بالمسلمين الدوائر ، ويتظاهرون بالمودة للمسلمين حين يكون لهم فتح من الله ونعمة ؛ ففى قلوبهم السم ، وعلى ألسنتهم الدهان ! ولكنهم بعد ضعاف، صورتهم شائهة تعافها نفوس المؤمنين ، ومع هذا الحقد الأسود الذى انطوت عليه صدورهم ؛ فإن الله تعالى يطمئن الذين آمنوا بوعد قاطع ؛ أن هذا الكيد الخفى الماكر ، وهذا التآمر مع الكافرين ، لن يغير من ميزان الأمور، ولن يجعل الغلبة والقهر للكافرين على المؤمنين .

ويقول صاحب الظلال : « وفى تفسير هذه الآية : ﴿ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً ﴾ وردت رواية أن المقصود بهذا النص يوم القيامة حيث يحكم الله بين المؤمنين والمنافقين فلا يكون هناك للكافرين على المؤمنين سبيل .

كما وردت رواية أخرى بأن المقصود هو الأمر فى الدنيا بألا يسلط الله الكافرين على المسلمين تسليط استئصال. وإن غُلب المسلمون فى بعض المعارك ، وفى بعض الأحايين ، وإطلاق النص فى الدنيا والآخرة أقرب ؛ لأنه ليس فيه تحديد .

ويقول صاحب الظلال : « وأنا أقرر فى ثقة بوعد الله لا يخالجها شك ، أن الهزيمة لا تلحق بالمؤمنين ، ولم تلحق بهم فى تاريخهم كله ، إلا وهناك ثغرة فى حقيقة الإيمان إما فى الشعور وإما فى العمل ـ ومن الإيمان أخذ العدة ، وإعداد القوة فى كل حين بنية الجهاد فى سبيل الله، وتحت هذه الراية وحدها مجردة من كل إضافة ومن كل شائبة ، وبقدر هذه الثغرة تكون الهزيمة الوقتية ؛ ثم يعود النصر للمؤمنين ـ حين يوجدون !

ففى « أحد » مثلاً كانت الثغرة فى ترك طاعة الرسول ﷺ وفى الطمع فى الغنيمة . وفى «حنين» كانت الثغرة فى الاغترار بالكثرة والإعجاب بها ونسيان السند الأصيل ! ولو ذهبنا نتتبع كل مرة تخلف فيها النصر عن المسلمين فى تاريخهم لوجدنا شيئاً من هذا ، نعرفه أو لا نعرفه ، أما وعد الله فهو فى كل حين » .

ثم تمضى الآيات بعد ذلك الوعد القاطع المطمئن للمؤمنين . المخذّل للمنافقين الذى يتولون الكافرين يبتغون عندهم العزة ، يمضى فيرسم صورة أخرى لهم ، مصحوبة بالتهوين من شأنهم وبوعيد الله لهم ، فهم ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ ، أى مستدرجهم وتاركهم فى غيهم ؛ يمضون فى طريق الهاوية حتى يسقطوا ؛ وصورتهم الأخرى الكريهة أنهم يقومون إلى الصلاة كسالى يراؤون الناس ، فهم لا يتذكرون الله إنما يتذكرون الناس ! وهم لا يتوجهون إلى الله ، إنما هم يراؤون الناس علاوة على ذلك يتأرجحون بين الكفر والإيمان ، ومن ثم حقت عليهم كلمة الله ، واستحقوا ألا يعينهم فى الهداية ، ومن ثم فلن يستطيع أحد أن يهديهم سبيلاً . ولا أن يجد لهم طريقاً مستقيماً . ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلاً ﴾ .

وبعد هذه الصورة المنفرة والسيئة للمنافقين يتجه السياق للمؤمنين مُحذراً إياهم أن يسلكوا طريق هؤلاء المنافقين ـ وطريق المنافقين ـ كما سبق ـ هو اتخاذهم الكفار أولياء من دون المؤمنين ويحذرهم بطش الله ونقمته ، كما يصور لهم مصير المنافقين فى الآخرة . وهو مصير مفزع رهيب ومهين وذليل ، فهم فى الدرك الأسفل من النار ، وهو مصير يتفق مع ثقلة الأرض التى تلصقهم بالتراب ، فلا ينطلقون ولا يرتفعون . ثقلة المطامع والرغائب ، والحرص والحذر ، والضعف والخوف ، وموالاة الكافرين ومداراة المؤمنين والوقوف فى الحياة ذلك الموقف المهين : ﴿ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ .. فهم كانوا فى الحياة الدنيا يزاولون تهيئة أنفسهم وإعدادها لذلك المصير المهين .

وبعد هذا المشهد المفزع يفتح لهم باب النجاة ، باب التوبة لمن أراد النجاة ، ويقول صاحب الظلال مُعلقاً على هذه الآيات : « والتوبة والإصلاح يتضمنان الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين

لله ، ولكنه هنا ينص على الاعتصام بالله ، وإخلاص الدين لله ؛ لأنه يواجه نفوساً تذبذبت ، ونافقت ، وتولت غير الله ، فناسب أن ينص عند ذكر التوبة والإصلاح ، على التجرد لله ، والاعتصام به وحده ؛ وخلاص هذه النفوس من تلك المشاعر المذبذبة ، وتلك الأخلاق المخلخلة ؛ ليكون فى الاعتصام بالله وحده قوة وتماسك ، وفى الإخلاص لله وحده خلوص وتجرد .

وبذلك تخف تلك الثقلة التى تهبط بالمنافقين فى الحياة الدنيا إلى اللصوق بالأرض ، وتهبط بهم فى الحياة الآخرة إلى الدرك الأسفل من النار ؛ وبذلك يرتفع التائبون منهم إلى مصاف المؤمنين ؛ المعتزين بعزة الله وحده ، المستعلين بالإيمان ، المنطلقين من ثقلة الأرض بقوة الإيمان وجزاء المؤمنين ـ ومن معهم ـ معروف : ﴿ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

وأخيراً يتساءل الله عز وجل ـ متعجباً : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾؟! إن عذابه لجزاء على الجحود والكفران ؛ وتهديد لعله يقود إلى الشكر والإيمان ، إنها ليست شهوة التعذيب ، ولا رغبة التنكيل ، ولا التذاذ الآلام، ولا إظهار البطش والسلطان ، تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً ، فمتى اتقيتم بالشكر والإيمان ؛ فهناك الغفران والرضوان وهناك شكر الله ـ سبحانه ـ لعبده وعلمه ـ سبحانه ـ بعباده ، وهذه إشارة إلى معالم الطريق .. الطريق إلى الله الواهب المنعم، الشاكر العليم .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ متى استقرت حقيقة الإيمان فى نفوس المؤمنين ، وتمثلت فى واقع حياتهم منهجاً للحياة ، ونظاماً للحكم ، وتجرداً لله فى كل خاطرة وحركة ، وعبادة لله فى الصغيرة والكبيرة ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

٢ ـ القوارع والمحن كثيرا ما تكون رحمة من الله ، حين تصيب العباد ، فتردهم سريعًا عن الخطأ أو تعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ؛ وكثيراً ما تكون العافية والنعمة استدراجًا من الله للمذنبين الغاوين؛لأنهم بلغوا من الإثم والغواية ما يستحقون معه أن يتركوا بلا قارعة ولا نذير؛ حتى ينتهوا إلى شر مصير .

٣ ـ ضرورة إخلاص العبادة لله ، والاجتهاد فيها ، والقيام إليها بنشاط ورغبة ، وحب لله ، والبعد عن الرياء .

٤ ـ رحمة الله تعالى باب مفتوح دائماً ، ويتسع لكل خلقه حتى من كفر منهم أو نافق إذا تاب إلى الله عز وجل .

٥ ـ عقاب الله وعذابه لا يُعفى منه إلا من آمن بالله وشكره بالقلب واللسان والجوارح .

الجزء السادس — سورة النساء

لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم وكان
الله سميعا عليما ﴿١٤٨﴾ إن تبدوا خيرا أو تخفوه أو تعفوا عن
سوء فإن الله كان عفوا قديرا ﴿١٤٩﴾ إن الذين يكفرون
بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله
ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون
أن يتخذوا بين ذلك سبيلا ﴿١٥٠﴾ أولئك هم الكافرون
حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا ﴿١٥١﴾ والذين آمنوا
بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف
يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما ﴿١٥٢﴾ يسألك
أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا
موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم
الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم
البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا ﴿١٥٣﴾
ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا
وقلنا لهم لا تعدوا في السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ﴿١٥٤﴾

١٠٢

معانى الكلمات :

الجهر : الإعلان .

سبيلاً : طريقاً بين الكفر والإيمان .

أعتدنا : أعددنا وهيأنا .

جهرة : عياناً ومواجهة .

الصاعقة : نارٌمن السماء أو صيحة منها .

اتخذوا العجل : عبدوه وجعلوه إلهاً .

الطور : جبل سيناء فى مصر .

بميثاقهم : بعهدهم .

الباب : باب بيت المقدس .

لا تعدوا فى السبت : لا تعتدوا باصطياد الحيتان فيه .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان قبح الجهر بالسوء ، وضوابط الجهر به .

٢ ـ بيان حقيقة الإيمان الكامل الشامل .

٣ ـ أن نعلم حقيقة اليهود كما ذكرها الله فى القرآن .

المحتوى التربوى :

تستكمل هذه الآيات طرفاً من تطهير القرآن للنفس والمجتمع ، وتربيته على الآداب الاجتماعية الإسلامية، فيكره الله للجماعة المسلمة أن تشيع فيها مقالة السوء، ويستثنى حق الجهر بها على من وقع عليه ظلم ،يدفعه بكلمة سوء يصف بها الظالم ،فى حدود ما وقع عليه من الظلم!

ويقول صاحب الظلال : « إن الإسلام يحمى سمعة الناس ـ ما لم يظلموا ـ فإذا ظلموا لم يستحقوا هذه الحماية ؛ وأُذن للمظلوم أن يجهر بكلمة السوء فى ظالمه ؛ وكان هذا هو الاستثناء الوحيد من كف الألسنة عن كلمة السوء . وهكذا يوفق الإسلام بين حرصه على العدل الذى لا يطيق معه الظلم،وحرصه على الأخلاق الذى لا يطيق معه خدشاً للحياء النفسى والاجتماعى..».

ويربط الأمر فى النهاية بالله ، بعدما ربطه فى البداية بحب الله وكرهه : ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ ﴾ وليشعر القلب البشرى أن مرد تقدير النية والباعث ، وتقدير القول والاتهام ، لله السميع لما يُقال ، العليم بما وراء ما تنطوى عليه الصدور .

ثم لا يقف النص عند هذا الحد السلبى فى النهى عن الجهر بالسوء ؛ إنما يوجه إلى الخير الإيجابى عامة ، ويوجه إلى العفو عن السوء ، ويلوح بصفة الله سبحانه فى العفو وهو قادر على الأخذ ، ليتخلق المؤمنون بأخلاق الله سبحانه فيما يملكون وما يستطيعون .

وعندئذ يشيع الخير فى المجتمع المسلم إذا أبدوه ، ويؤدى دوره فى تربية النفوس وتزكيتها إذا أخفوه ـ فالخير طيب فى السر طيب فى العلن ـ وعندئذ يشيع العفو بين الناس ، فلا يكون للجهر بالسوء مجال . على أن يكون عفو القادر الذى يصدر عن سماحة النفس لا عن مذلة العجز ؛ وعلى أن يكون تخلقاً بأخلاق الله ، الذى يقدر ويعفو : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾ .

ويأخذ القرآن فى جولة مع أهل الكتاب . فلقد كان اليهود يدعون الإيمان بأنبيائهم ؛ وينكرون رسالة عيسى ورسالة محمد ؛ كما أن النصارى يقفون بإيمانهم عند عيسى ـ فضلاً عن تأليهه ـ وينكرون رسالة محمد كذلك .

والقرآن ينكر على هؤلاء وهؤلاء ؛ ويقرر التصور الإسلامى الشامل عن الإيمان بالله ورسوله ؛ بدون تفريق بين الله ورسله ، وبدون تفريق بين رسله جميعاً ، وبهذا الشمول كان الإسلام هو « الدين » الذى لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذى يتفق مع وحدانية الله ؛ ومقتضيات هذه الوحدانية .

يقول صاحب الظلال : « إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضى توحيد دينه الذى أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله فى الحقيقة ؛ وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية . فدين الله للبشر ومنهجه للناس ،هو هو لا يتغير فى أساسه كما أنه لا يتغير فى مصدره » .

ويمضى السياق يستعرض بعض مواقف اليهود فى مجال الجهر بالسوء الذى بدئت به هذه الآيات ، فلقد وقف اليهود فى الجزيرة العربية من الإسلام ونبى الإسلام موقفاً عدائياً ، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يأتيهم بكتاب من السماء . كتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء مجسماً يلمسونه بأيديهم ، ويتولى الله ـ سبحانه ـ الإجابة عن نبيه.ويقص عليه وعلى الجماعة المسلمة ـ فى مواجهة اليهود ـ صفحه من تاريخهم الأسود مع نبيهم موسى عليه السلام الذى يزعمون أنهم يؤمنون به ؛ ويرفضون التصديق بعيسى من بعده وبمحمدٍ !

إن هذا السلوك المقيت ليس جديداً عليهم ، وإنما هو ديدنهم من قديم إنهم هم هم من عهد موسى وحتى تقوم الساعة ، أجلاف غلاظ القلوب لا يدركون إلا المحسوسات ، ولا يسلمون إلا تحت القهر والبطش ، وهم هم كفراً وغدراً ونقضاً للعهود ؛ ولا يتورعون كذلك عن الجهر بالسوء ، فيقول الله لنبيه ﷺ فلا عليك من هذا التعنت ؛ ولا غرابة فيه ولا عجب منه ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً ﴾ ، وهو مطلب طابعه التبجح الذى يصدر عن طبع خالطته بشاشة الإيمان ؛ أو فيه استعداد للإيمان ، ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ﴾ .

ولكن الله ـ سبحانه ـ عفا عنهم ؛ وتقبل فيهم دعاء موسى عليه السلام وضراعته إلى ربه ولكن اليهود هم اليهود . لايفلح معهم إلا القهر والخوف ؛ فأعطى الله ـ عز وجل ـ موسى عليه السلام الشريعة التى تضمنتها الألواح ، فشريعة الله سلطان من الله ؛ وكل شريعة غير شريعة الله ما أنزل الله بها من سلطان ؛ وما جعل فيها من سطوة على القلوب ، لذلك تستهين القلوب بالشرائع والقوانين التى يسنها البشر لأنفسهم ، ولا تنفذها إلا تحت عين الرقيب وسيف الجلاد ، فأما شريعة الله فالقلوب تخضع لها وتخنع ؛ ولها فى النفس مهابة وخشية .

ولكن اليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الإيمان أبوا الاستسلام لما فى الألواح ، وهنا جاءهم القهر المادى الذى يناسب طبيعتهم الفظة الغليظة ، إذا نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رؤوسهم ؛ تهددهم بالوقوع عليهم ؛ إذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد ؛ وما كتب عليهم من التكاليف فى الألواح . وعندئذ فقط استسلموا ؛ وأخذوا العهد ؛ وأعطوا الميثاق . ميثاقاً غليظاً .. مؤكداً وثيقاً .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ أن المسلم محظور عليه أن يجهر بالسوء من القول ، لأن الله يبغض هذا السلوك ويبغض صاحبه ، وذلك لتطهير المجتمع المسلم من البذاءة والفحش والكلام السيئ ، فالله تعالى لا يحب الجهر بالسوء .

٢ ـ أن الإيمان بالله يقتضى الإيمان برسله أجمعين دون تفريق بينهم .

٣ ـ أن الأنبياء جميعاً من عند الله ، ومناهجهم جميعاً تقوم على توحيد الله وعبادته ، فالكفر بأحد هؤلاء الأنبياء كُفر بهم جميعاً وكفر بالله تعالى .

٤ ـ أن اليهود فى كل زمان ومكان أهل لجاجة وتعنت وعناد ، لذا فلا عهد لهم ولا ذمة ولا أمان .

فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ
بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ
فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ
بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ
ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ
وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟
حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ
كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ
بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ
ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ
أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ
وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾
١٠٣

معانى الكلمات :

قلوبنا غُلف : مُغَشَّاة بأغطية خلْقيَّة فلا تعى . **طَبَع اللهُ عليها** : ختم عليها فحجبها عن العلم . **بهتانا عظيماً** : كذباً وباطلاً فاحشاً . **رفعه الله إليه** : رفعه حياً إلى السماء بجسده وروحه . **شُبّه لهم** : ألقى على المقتول شَبَه عيسى عليه السلام

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان بطلان اعتقاد النصارى فى أن عيسى عليه السلام صلب وقتل .

٢ ـ بيان أثر المعاصى فى الحرمان من خير الدنيا والآخرة .

٣ ـ بيان حرمة أكل أموال الناس بالباطل كالربا والسرقة والغش .

٤ ـ أن نعرف فضل الرسوخ فى العلم والإيمان على أصحابهما .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات الحديث عن اليهود الذين أخذ الله عليهم الميثاق ؛ وكان فى هذا الميثاق : أن يدخلوا بيت المقدس سُجداً . وأن يعظموا السبت الذى طلبوا أن يكون لهم عيداً . ولكن ماذا كان ؟ إنهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم؛ وغياب القهر عنهم، نقضوا الميثاق ، وكفروا بآيات الله، وقتلوا أنبياءه بغير حق . وتبجحوا فقالوا : إن قلوبنا لا تقبل موعظة ، ولا يصل إليها قول ؛ لأنها مُغلقة دون كل قول .

يقول صاحب الظلال : « قلوبهم ليست مُغلقة بطبعها إنما هم كفرهم جّر عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هى صلدة جامدة مغطاة ، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته ، فلا يقع منهم الإيمان ، إلا قليلاً ، كعبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعيّة ، وأسد بن عبيد الله » .

ويعود القرآن فيكرر صفة الكفر كلما ذكر إحدى منكراتهم ، وذكرها هنا بمناسبة قولهم على مريم الطاهرة بهتاناً عظيماً !فرموها بالزنا مع يوسف النجار ـ لعنة الله عليهم ! ثم تبجحوا بأنهم قتلوا المسيح وصلبوه وهم يتهكمون بدعواه الرسالة فيقولون : قتلنا عيسى ابن مريم رسول الله!

ويتولى القرآن الرد عليهم بأنهم ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ ، ولا يدلى القرآن بتفصيل فى هذا الرفع أكان بالجسد والروح فى حالة الحياة ؟ أم كان بالروح بعد الوفاة ؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين ؟ وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواه .

ويقرر النص القرآنى حقيقة حاسمة وهى أن اليهود الذين كفروا بعيسى عليه السلام ـ وما زالو على كفرهم به ـ وقالوا : إنهم قتلوه وصلبوه ، ما من أحد منهم يدركه الموت ، حتى تكشف له الحقيقة عند حشرجة الروح ، فيرى أن عيسى حق ، ورسالته حق ، فيؤمن به ، ولكن حين لا ينفعه إيمان .. ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً ، وبذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب . ثم يعود بعدها إلى تعداد مناكر اليهود ؛ وما نالهم عليها من الجزاء الأليم فى الدنيا والآخرة .

فيضيف إلى ما سبق من مناكرهم : الظلم ، والصد الكثير عن سبيل الله ، فهم ممعنون فيه ودائبون عليه ، وأخذهم الربا ـ ليس عن جهل ـ فقد نهوا عنه فأصروا عليه ! وأكلهم أموال الناس بالباطل . بالربا وغيره من الوسائل .

بسبب هذه المنكرات وغيرها ، حرمت عليهم طيبات كانت حلالاً لهم ، وأعد الله للكافرين منهم عذاباً أليماً .

ويقول صاحب الظلال : « وهكذا تتكشف هذه الحملة عن كشف طبيعة اليهود وتاريخهم وفضح عللهم ، وعدم الاستجابة للرسول وتعنتهم ؛ ودمغهم بالتعنت مع نبيهم وقائدهم ومنقذهم ؛ ويسر ارتكابهم للمنكر وجهرهم بالسوء فى حق الأنبياء والصالحين .. بل قتلهم والتبجح بقتلهم ! وتسقط بذلك وتتهاوى دسائس اليهود فى الصف المسلم وكيدهم ومكرهم وحبائلهم . وتعرف الجماعة المسلمة ـ ما ينبغى أن تعرفه الأمة المسلمة فى كل حين عن طبيعة اليهود وجبلتهم ، ووسائلهم وطرائقهم ، ومدى وقوفهم للحق فى ذاته سواء جاء من غيرهم أو نبع فيهم ، فهم أعداء للحق وأهله ، وللهدى وحملته . فى كل أجيالهم وأزمانهم . مع أصدقائهم وأعدائهم ؛ لأن جبلتهم عدوة للحق فى ذاته ؛ جاسية قلوبهم غليظة أكبادهم لا يحنون رؤوسهم إلا للمطرقة ! ولا يسلمون للحق إلا وسيف القوة مصلتٌ على رقابهم » .

ومع ذلك ينصفهم القرآن الكريم ، ـ القليل المؤمن منهم ـ ويقرر حُسن جزائهم ، وهو يضمهم إلى موكب الإيمان العريق ، ويشهد لهم بالعلم والإيمان ، ويقرر أن الذى هداهم إلى التصديق بالدين كله : ما أنزل إلى الرسول ﷺ وما أنزل من قبله ، هو الرسوخ فى العلم وهو الإيمان ؛ فالعلم الراسخ ، والإيمان المنير ، كلاهما يقود أهله إلى الإيمان بالدين كله ، كلاهما يقود إلى توحيد الدين الذى جاء من عند الله الواحد .

ويقول صاحب الظلال : « وذكر العلم الراسخ بوصفه طريقاً إلى المعرفة الصحيحة كالإيمان الذى يفتح القلب للنور ، لفتة من اللفتات القرآنية التى تصور واقع الحال التى كانت يومذاك ؛ كما تصور واقع النفس البشرية فى كل حين . فالعلم السطحى كالكفر الجاحد ، هما اللذان يحولان بين القلب وبين المعرفة الصحيحة ، ونحن نشهد هذا فى كل زمان . فالذين يتعمقون فى العلم،ويأخذون منه بنصيب حقيقى، يجدون أنفسهم أمام دلائل الإيمان الكونية ـ أو على الأقل ـ أمام علامات استفهام كونية كثيرة ، لا يجيب عليها إلا الاعتقاد بأن لهذا الكون إلهاً واحداً مسيطراً مدبراً متصرفاً ، وذا إرادة واحدة ، وضعت ذلك الناموس الواحد ، وكذلك الذين تتشوف قلوبهم للهدى ـ المؤمنون ـ يفتح الله عليهم ، وتتصل أرواحهم بالهدى ، أما الذين يتناوشون المعلومات ويحسبون أنفسهم علماء ، فهم الذين تحول قشور العلم بينهم وبين إدراك دلائل الإيمان ، أو لا تبرز لهم ـ بسبب علمهم السطحى الناقص ـ علامات الاستفهام . وشأنهم شأن من لا تهفو قلوبهم للهدى ولا تشتاق ، وكلاهما هو الذى لا يجد فى نفسه حاجة للبحث عن طمأنينة الإيمان ، أو يجعل التدين عصبية جاهلية فيفرق بين الأديان الصحيحة التى جاءت من عند ديان واحد ، على أيدى موكب واحد متصل من الرسل صلوات الله عليهم أجمعين » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ بطلان اعتقاد النصارى فى أن عيسى عليه السلام صلب وقتل ، أما اليهود فإنهم وإن لم يقتلوا عيسى فهم مؤاخذون على قصدهم حيث صلبوا وقتلوا من ظنوه أنه عيسى عليه السلام.

٢ ـ المعاصى تورث الحرمان من طيبات الدنيا وأجر الآخرة .

٣ ـ الرسوخ فى العلم والإيمان يؤدى إلى العمل الصالح وإلى الاتصاف بأحسن الصفات ، وإلى الابتعاد عن كل شر وكل ظلم للنفس أو للغير .

٤ ـ من يظلم نفسه أو غيره فقد عصى الله الذى حرم الظلم على نفسه وعلى عباده .

الجزء السادس — سورة النساء

الحزب ١١

إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِۦ
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ
مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ
تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ
لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا
﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ
وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا
﴿١٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا
لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا
وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ
الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُوا
فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

١٠٤

معانى الكلمات :

الأسباط : حفدة يعقوب عليه السلام . **زبوراً** : رسم الكتاب الذى أنزل على داود . **لم نقصصهم عليك** : لم يذكروا فى القرآن بأسمائهم . **من قبل** : من قبل هذه الآية .

مبشرين : يبشرون من أطاع الله بالخير .

بما أنزل إليك : القرآن الكريم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان الحكمة فى إرسال الرسل ، وما المقصود بحجة الله على الناس يوم القيامة .

٢ ـ بيان معنى الشهادة ، ومن هو الشهيد .

٣ ـ بيان دور العقل ووظيفته تجاه الرسالة والإيمان بها .

٤ ـ بيان عظم وثقل التبعة التى تركها الأنبياء لأتباعهم من بعدهم .

المحتوى التربوى :

تستطرد الآيات فى مواجهة أهل الكتاب ـ واليهود منهم فى هذا الموضع خاصة ـ وموقفهم من رسالة محمد ﷺ وزعمهم أن الله لم يرسله ، وتفريقهم بين الرسل ، وتعنتهم وهم يطلبون أمارة على رسالته : كتاباً ينزله عليهم من السماء ، فتقرر أن الوحى للرسول ليس بدعاً ، وليس غريباً ، فهو سنة الله فى إرسال الرسل جميعاً من عهد نوح إلى عهد محمد ـ عليهما السلام ـ وكلهم رسل أرسلوا للتبشير والإنذار ، اقتضت هذا رحمة الله بعباده ، وأخذه الحجة عليهم ، وإنذاره لهم قبل يوم الحساب ، وكلهم جاؤوا بوحى واحد ، لهدف واحد ؛ فالتفرقة تعنت لا يستند لدليل ، وإذا أنكروا هم وتعنتوا فإن الله يشهد ـ وكفى به شهيداً ـ والملائكة يشهدون .

ويقول صاحب الظلال : فى قوله : ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ : « نقف من هذه اللفتة أمام حشد من الإيحاءات اللطيفة العميقة منها :

١ ـ قيمة العقل البشرى ووظيفته ودوره فى أخطر قضايا « الإنسان » قضية الإيمان بالله : إن دور هذا العقل أن يتلقى عن الرسالة ؛ ووظيفته أن يفهم ما يتلقاه عن الرسول ، ومهمة الرسول

أن يبلغ ويبين ، ويستنقذ الفطرة الإنسانية مما يرين عليها من الركام . وينبه العقل الإنسانى إلى تدبر دلائل الهدى وموحيات الإيمان فى النفس والآفاق ، وأن يرسم له منهج التلقى الصحيح ، ومنهج النظر الصحيح ؛ وأن يقيم له القاعدة التى ينهض عليها منهج الحياة العملية ، المؤدى إلى الدنيا والآخرة .

ـ وليس دور العقل أن يكون حاكماً على الدين ومقرراته من حيث الصحة والبطلان ، والقبول أو الرفض ـ بعد أن يتأكد من صحة صدورها عن الله ، وبعد أن يفهم المقصود بها ، فهو إذن ملزم بقبول مقررات الدين متى بلغت إليه عن طريق صحيح ، ومتى فهم عقله والمقصود بها، وما المراد منها .

ـ إن هذه الرسالة تخاطب العقل ، بمعنى أنها توقظه ، وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر الصحيح ، لا بمعنى أنه هو الذى يحكم بصحتها أو بطلانها ، وبقبولها أو رفضها ، ومتى ثبت النص كان هو الحكم ؛ وكان على العقل البشرى أن يقبله ويطيعه وينفذه ؛ سواء كان مدلوله مألوفاً له أو غريباً عليه .

٢ ـ نقف منها أمام التبعة العظيمة الملقاة على الرسل صلوات الله عليهم ـ ومن بعدهم على المؤمنين برسالاتهم ـ تجاه البشرية كلها . وهى تبعة ثقيلة بمقدار ما هى عظيمة .

ـ إن مصائر البشرية كلها فى الدنيا والآخرة سواء ، منوطة بالرسل وبأتباعهم من بعدهم فعلى أساس تبليغهم هذا الأمر للبشر ، تقوم سعادة هؤلاء البشر أو شقوتهم ، ويترتب ثوابهم أو عقابهم فى الدنيا والآخرة .

فأما رسل الله صلوات الله وسلام عليه فقد أدوا الأمانة وبلغوا الرسالة ، ومضوا إلى ربهم خالصين من هذا الالتزام الثقيل، وهم لم يبلغوها دعوة باللسان ، ولكن بلغوها ـ مع هذا ـ قدوة ممثلة فى العمل ، وجهاداً مضنياً بالليل والنهار لإزالة العقبات والعوائق ، وبما أن رسالته هى خاتمة الرسالات فلم يكتف بإزالة العوائق باللسان ، إنما أزالها كذلك بالسنان ﴿ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ .

وبقى الواجب الثقيل على من بعده على المؤمنين برسالته فهناك أجيال وراء أجيال جاءت وتجىء بعده ﷺ وتبليغ هذه الأجيال منوط ـ بعده ـ بأتباعه ، ولا فكاك لهم من هذه التبعة الثقيلة ـ تبعة إقامة حجة الله على الناس ، واستنفاذ الناس من عذاب الآخرة وشقوة الدنيا ـ إلا بالتبليغ والأداء على ذات المنهج الذى بلغ به رسول الله ﷺ .

فمن ذا الذى يستهين بهذه التبعة ؟ وهى تبعة تقصم الظهر وترعد الفرائص وتهز المفاصل ؟! إن الذى يقول : إنه « مسلم » إما أن يبلغ ويؤدى الدعوة ، وإلا فلا نجاة له فى دنيا ولا فى أخرى إنه يقول : إنه « مسلم » ثم لا يبلغ ولا يؤدى كل ألوان البلاغ والأداء ، إنما يؤدى شهادة ضد

الإسلام الذى يدعيه بدلاً من أداء الشهادة له ، تحقق فيه قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

وتبدأ شهادته للإسلام ، من أن يكون هو بذاته . ثم ببيته وعائلته . ثم بأسرته وعشيرته صورة واقعية من الإسلام الذى يدعو إليه ، وتخطو شهادته الخطوة الثانية بقيامه بدعوة الأمة إلى تحقيق الإسلام فى حياتها كلها .. الشخصية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وتنتهى شهادته بالجهاد لإزالة العوائق التى تضل الناس وتفتنهم من أى لون كانت هذه العوائق فإذا استشهد فى هذا فهو إذن «شهيد» أدى شهادته لدينه ، ومضى إلى ربه ، وهذا وحده هو «الشهيد».

فإذا أنكر أهل الكتاب هذه الرسالة الأخيرة فلينكروا : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ وعندئذ يجىء التهديد الرعيب للمنكرين فى موضعه ، بعد شهادة الله ـ سبحانه ـ وشهادة الملائكة بكذبهم وتعنتهم والتوائهم .

ولن يغفر الله لهم ولن يهديهم طريقاً ، بعدما ضلوا ضلالاً بعيداً ، وقطعوا على أنفسهم كل طريق للمغفرة . ﴿ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ فهو القاهر فوق عباده ، وليس بينه وبين أحد من العباد صهر ولا نسب ، إلا التقوى والعمل الصالح ، ومن ثم دعوة شاملة للناس كافة ـ بعد هذه البيانات كلها ـ أن هذا الرسول إنما جاءهم بالحق من ربهم فمن آمن به فهو الخير ، ومن كفر فإن الله غنى عنهم جميعاً ، وقادر عليهم جميعاً ، وله ما فى السموات والأرض وهو يعلم الأمر كله ، ويجريه وفق علمه وحكمته .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويًا :

١ ـ الله تعالى أعذر لعباده بأن أرسل إليهم رسلاً ، وأنزل مع هؤلاء الرسل كتباً ليبلغوا الناس عن ربهم ، ولئلا يكون لهم حجة على الله يوم القيامة وعند الحساب .

٢ ـ سعادة البشرية وشقوتها فى الدنيا والآخرة منوطة بالرسل وأتباعهم ، والرسل بلغوا وأدوا الأمانة ، وعلينا أن نبلغ الدعوة ونؤدى على نفس نهجهم .

٣ ـ دور العقل تجاه الرسالة ، أن يتلقى عنها ، ويفهم ما تلقاه ، ويبلغه كما فهمه دون تحريف أو تأويل كما بلغت إليه .

٤ ـ شهادة المسلم لهذا الدين تبدأ بذاته ثم ببيته وعائلته ، ثم بأسرته وعشيرته ، ثم بقيامه بدعوة الأمة كلها للإسلام كاملاً فى كل حياتها ثم بإزالة العقبات التى تعوق توصيلها للناس .

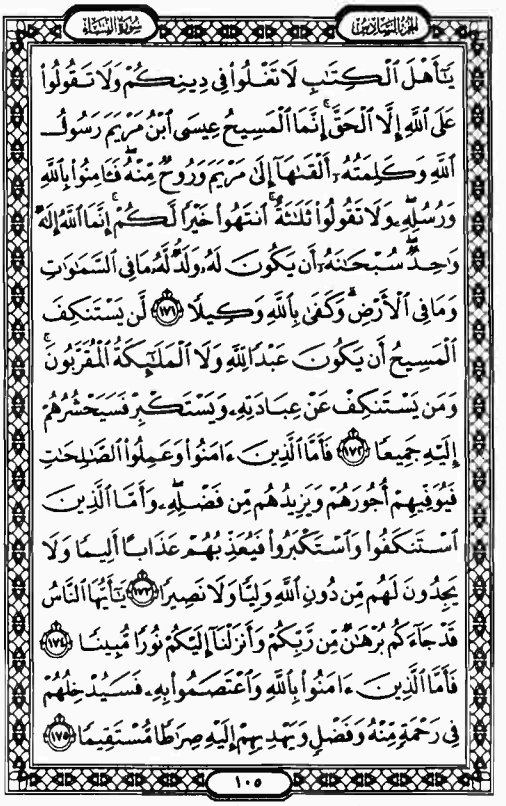
يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ
عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ
ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ
وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ
ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ
وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ
إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا
يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ
قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ
فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾
١٠٥

معانى الكلمات :

لا تغلوا : لا تفرطوا ولا تجاوزوا الحد .

كلمته : أوجده ـ تعالى ـ بقدرته .

روح منه : ذو روح من أمر ربه .

سبحانه : تعالى وتقدس عن ذلك علواً كبيراً . **لن يستنكف** : لن يستكبر ولن يترفع . **برهان** : دليل قاطع .

نوراً مبيناً : ضياء واضحاً . **اعتصموا به** : جمعوا بين العبادة والتوكل على الله .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان حرمة الغلو فى الدين وأثره على عقيدة المؤمن .

٢ ـ أن نعرف القول الفصل فى ألوهية عيسى وبنوته التى يدعيها النصارى .

٣ ـ أن نعلم أنه لا صلة بين الله وعباده إلا أنهم عبيد له وهو إله واحد لا معبود بحق سواه .

٤ ـ أن نستشير أهل العلم فى أمور الدين ، وما يعرض لنا من أمور .

المحتوى التربوى :

هذه الآيات من خاتمة سورة النساء تمثل جولة مع النصارى من أهل الكتاب ، فى الجولة السابقة معهم أنصف القرآن الكريم عيسى ابن مريم وأمه الطاهرة من افتراءات اليهود وفى هذه الجولة ينصف العقيدة والحق ، وإنصاف عيسى ابن مريم كذلك من غلو النصارى فى شأن المسيح عليه السلام ومن الأساطير الوثنية التى تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام والملل ، التى احتكت بها النصرانية ؛ سواء أساطير الإغريق والرومان وأساطير قدماء المصريين وأساطير الهنود .

والقضية التى يعرض لها السياق قضية « التثليث » ، وما تتضمنه من أسطورة « بنوة المسيح » لتقرير وحدانية الله سبحانه وتعالى على الوجه المستقيم الصحيح ، والثابت أن هذه الافتراءات دخلت على النصرانية على فترات متفاوتة التاريخ ، وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التى أنزلها بهم الأباطرة الرومان والمجامع المقدسة الموالية للدولة « الملكانيون » .

ويقول صاحب الظلال : « وإذا كان مولد عيسى عليه السلام من غير أب عجيباً فى عرف البشر ، خارقاً لما ألفوه ، فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المألوف . والمألوف للبشر ليس هو كل الموجود ، والقوانين الكونية التى يعرفونها ليست هى كل سُنة الله . والله يخلق السُنة ويجريها ، ويصرفها حسب مشيئته . ولا حدَّ لمشيئته .

ويعجب الإنسان ـ وهو يرى وضوح القضية وبساطتها ـ من فعل الهوى ورواسب الوثنية التى عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله ، فى أذهان أجيال وأجيال وهى ـ كما يصورها القرآن ـ بسيطة ، وواضحة مكشوفة .

إن الذى وهب لآدم من غير أبوين حياة متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه ، لهو الذى وهب عيسى من غير أب هذه الحياة الإنسانية كذلك ، وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التى لا تنتهى عن ألوهية المسيح لمجرد أنه جاء من غير أب . وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك ! تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

لذا فالله يدعوهم للإيمان بالله ورسله ـ ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً ومحمد بوصفه خاتم النبيين ـ والانتهاء عن تلك الدعاوى والأساطير ، ويدعوهم لتوحيده « إنما الله إله واحد » تشهد بهذا وحدة الناموس ، ووحدة الخلق، ووحدة الطريقة كن فيكون ، ويشهد بذلك العقل البشرى ذاته . فالقضية فى حدود إدراكه . فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقه ، ولا ثلاثه فى واحد ، ولا واحداً فى ثلاثة .

ويمضى السياق لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادى الصحيح ، وهى أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق ، ويصحح هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى ، أو شركاً فى الألوهية فهو الله ـ سبحانه ـ إله لهم وهم عبيده ، هو خالق لهم وهم من مخلوقاته ، هو مالك لهم وهم مماليك وكلهم سواء فى هذه الصلة بربهم ، لا بنوة لأحد ، ولا امتزاج بأحد ولا حلول فى أحد .

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل فى ألوهية المسيح وبنوته بتقريره أن عيسى ابن مريم عبد لله ؛ وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله ، وأن الملائكة المقربين عبيد لله ، وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله ، وأن جميع خلائقه ستحشر إليه . وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم . وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم .

ومن ثم دعوة إلى الناس كافة ـ كتلك الدعوة التى أعقبت المواجهة مع أهل الكتاب من اليهود ـ أن الرسالة الأخيرة تحمل برهانها من الله . وهى نور كاشف للظلمات والشبهات . فمن اهتدى بها واعتصم بالله فسيجد رحمة الله تؤويه ؛ وسيجد فضل الله ـ يشمله ؛ وسيجد فى ذلك النور والهدى إلى صراط الله المستقيم .

ويقول صاحب الظلال : « والاعتصام بالله ثمرة ملازمة للإيمان به ، متى صح الإيمان ؛ ومتى عرفت النفس حقيقة الله وعرفت حقيقة عبودية الكل له . فلا يبقى أمامها إلا أن تعتصم بالله وحده ، وهو صاحب السلطان والقدرة وحده ، هؤلاء يدخلهم الله فى رحمة منه وفضل ، فالإيمان هو الواحة الندية التى تجد فيها الروح الظلال من هاجرة الضلال فى تيه الحيرة والقلق والشرود، كما أنه القاعدة التى تقوم عليها حياة المجتمع ونظامه ؛ فى كرامة وحرية ونظافة واستقامة ، حيث يعرف كل إنسان مكانه على الحقيقة فهو عبد لله ، وسيد مع كل من عداه .

وتختم السورة التى بدأت بعلاقات الأسرة ، وتكافلها الاجتماعى أ تختم بتكملة أحكام الكلالة ـ وهى على قول أبى بكر ﷺ وهو قول الجماعة : ما ليس فيها ولد ولا والد . والحكم الباقى فى مسألة الكلالة هنا هو : إن كانت للمتوفى ، الذى لا ولد له ولا والد ، أخت شقيقة أو لأب ، فلها نصف ما ترك أخوها . وهو يرث تركتها ـ بعد أصحاب الفروض ـ إن لم يكن لها ولد ولا والد كذلك . فإن كانتا أختين شقيقتين أو لأب فلهما الثلثان مما ترك . وإن تعدد الإخوة والأخوات فللذكر مثل حظ الأنثيين ـ حسب القاعدة العامة فى الميراث ـ والإخوة والأخوات الأشقاء يحجبون الإخوة والأخوات لأب حين يجتمعون .

وتختم آية الميراث ، وتختم معها السورة ، بذلك التعقيب القرآنى الذى يرد الأمور كلها لله ، ويربط تنظيم الحقوق والواجبات والأموال وغير الأموال بشريعة الله : ﴿ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ ـ أن الغلو فى الدين مرفوض يعاقب الله تعالى عليه أشد عقاب لأنه يؤدى إلى الكفر .

٢ ـ أن توحيد الله تعالى بالألوهية والربوبية هو الأصل الذى يلائم فطرة الإنسان ، وأن القائلين بغير التوحيد عليهم أن ينتهوا عن هذا الباطل ؛ لأنهم بذلك يشركون بالله مالم ينزل به سلطانا ويقولون على الله مالا يعلمون ، وإذا كان الله تعالى يعذب العصاة فما بالنا بمن أشرك بالله وقال : إنه ثلاثة ؟!

٣ ـ أن عبادة الله تعالى وحده هى الأصل . والملائكة والأنبياء عبيد لله لا يمكن أن يستنكفوا عن أن يعبدوا الله بل هم يتشرفون بأن يكونوا عبيدًا لله عز وجل .

٤ ـ أن المسلمين يجب أن يستفتوا أهل العلم فى كل أمر من أمور الدين ، فقد كان ذلك خُلق الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع رسول الله ﷺ .

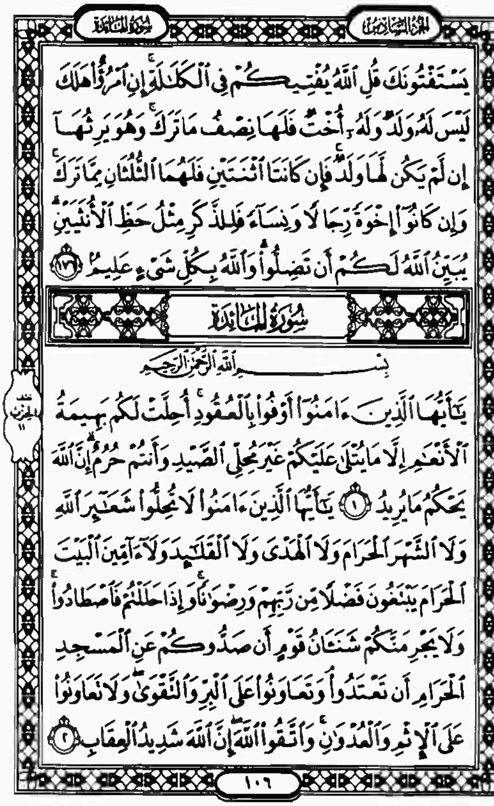

سورة المائدة

معانى الكلمات :

العقود : العهود المؤكدة . **بهيمة** : كل ذات أربع قوائم فى البر والبحر . **الأنعام** : الإبل والبقر والغنم والماعز . **وأنتم حرم** : حال إحرامكم بالحج أو بالعمرة . **لا تحلوا:** لا تنتهكوا . **شعائر الله** : مناسك الحج . **الشهر الحرام** : رجب ـ ذو القعدة ـ ذو الحجة ـ المحرم . **الهدى** : ما يهدى من الأنعام إلى الكعبة .

القلائد : ما يعلم به الهدى من علامات .

ولا آمين البيت الحرام : ولا تنتهكوا حرمة الحجاج بصدهم عن المناسك .

حللتم: خرجتم من الإحرام .**لا يجرمنكم:** لا يحملنكم . **شنآن قوم** : بغضكم لهم .

الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ ـ بيان أهمية الوفاء بالعقود مع الله ، ومع النفس ومع الناس .

٢ ـ أن نلتزم أوامر الله ونجتنب نواهيه فيما أحل وحرم على المسلمين .

٣ ـ أن نتخلق بخلق الوفاء ونتحرى الحلال فى كل أمورنا .

المحتوى التربوى :

تستهل هذه السورة فى أولى آياتها الأمر بالوفاء بالعقود ، ثم المضى بعد هذا الافتتاح فى بيان الحلال والحرام من الذبائح والمطاعم والمشارب والمناكح . وفى بيان الكثير من الأحكام الشرعية والتعبدية . وفى بيان حقيقة العقيدة الصحيحة ، وحقيقة العبودية ـ وحقيقة الألوهية . وفى بيان علاقات الأمة المؤمنة بشتى الأمم والملل والنحل ، وفى بيان تكاليف الأمة المؤمنة فى القيام لله والشهادة بالقسط والوصاية على البشرية بكتابها المهيمن على كل الكتب قبلها، والحكم فيها بما أنزل الله ؛ والحذر من الفتنة عن بعض ما أنزل الله ؛ والحذر من عدم العدل تأثراً بالمشاعر والمودة والشنآن .